حماية الفكر في القرآن الكريم

(دراســة موضـوعيــة)

أحمد بن محمد الفريح

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ⓒ أحمـــد محمـــد الفريـح، ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفريح، أحمد محمد
حماية الفكر في القرآن الكريم./ أحمد محمد الفريح–ط١–الرياض
١٤٣٧هـ
ص ؛ ٠٠×٠٠ سم
ردمك: ٣ -٩٩٨٥ -٠١ -٦٠٣ -٩٧٨
١ -القرآن والعلم أ -العنوان
ديوي ٢٢٩,٤ ١٤٣٧/١٤٠٩

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٤٠٩
ردمك: ٣ -٩٩٨٥ -٠١ -٦٠٣ -٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هـاتف: ٢٤١٦١٣٩ - ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩
فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣
الرقم المـوحـد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده وبعد

فإن صفاء المعتقد وأصالة ثوابته من نعم الله التي يجب أن يُشكر الله عليها، فخوارم المعتقد في هذا العصر تعج بها كثير من الساحة الفكرية، والسياسية، والإعلامية، وفضاءات التواصل الاجتماعي، مما كرس بعض المفاهيم المغلوطة حيال أصول الإيمان وحقائقه ومكملاته، فعاد ذلك على سلوك البعض بالإخلال والتشويه.

وإن أمان الأفكار وسلامتها من الخلل والانحراف هو الركيزة الأولى لتحقيق الأمن الشامل الذي من مقومات بنائه ووسائل تعزيزه غرس العقيدة الصحيحة وتنقيتها من الشوائب، ولزوم منهج الكتاب والسنة، وتقوية الوازع الديني في النفوس، وزيادة الإيمان وتقويته لدى الأفراد والجماعات: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}.

ومما يعزز الأمن الفكري إبراز الجوانب الأخلاقية والسلوكية الحسنة التي جاء بها دين الإسلام وتطبيقها وتمثلها في جوانب الحياة، وإظهار وسطية الإسلام واعتداله وتوازنه وترسيخ الانتماء لهذا الدين الوسط، وبيان الأفكار المنحرفة وإظهار خطرها والمنع من نشرها والوقوع فيها، ومحاربة المحاولات التي ترمي إلى المساس بثوابت الدين وأحكام الشريعة أو تهديد وحدة المجتمع، والتعامل بكل حزم مع دعاة الانحراف الفكري بكافة أنواعه، ومن وسائل تعزيز الأمن الفكري إشاعة ثقافة الحوار داخل المجتمع بكل

مؤسساته الرسمية وغير الرسمية، وتكثيف برامج التصحيح الفكري باستخدام وسائل الاتصال الجماهيري، وبخاصةٍ شبكة المعلومات.

وهذه المقومات لا يمكن أن تأخذ طريقها إلا من خلال اعتماد منهج راسخ يجذر هذه المفاهيم نحو حماية الفكر وتحقيق الجوانب الأمنية له، ولن يجد الباحثون والمهتمون بهذا شأن مثل القرآن منهجاً ودستوراً.

وقد أحسن فضيلة الشيخ أحمد بن محمد الفريح فجلى شيئاً من ذلك من خلال بحثه القيم المعنون بـ(حماية الفكر في القرآن الكريم" دراسة موضوعية") ليقرب من خلاله المبادئ والمعاني التي تعزز مفهوم الحماية للفكر ووسائله في كتاب الله تعالى، وهذا النوع من البحوث والدراسات تتكامل مع البرامج العملية والعلمية في الواقع التربوي التي تنقل هذه المفاهيم إلى موجهات سلوكية وأخلاقية يتم من خلالها بناء معيارية لدى الأجيال في التعامل مع التيارات الفكرية المعاصرة.

فشكر الله للشيخ أحمد هذا الجهد المبارك وأسأل الله أن ينفع بماجاء فيه وأن يجعله في ميزان حسناته.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والسلام.

كتبه

١٤٢٧/٢/١٠

د. صالح بن عبد الله بن حميد

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد:

فيسر الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه «**تبيان**» أن تقدم لكم إصدارها رقم (٤٠) من سلسلة الرسائل العلمية وهو هذا البحث المسمى: «**حماية الفكر في القرآن الكريم .. دراسة موضوعية**» للباحث الشيخ/ **أحمد بن محمد الفريح**.

والكتاب في رسالة ماجستير في تخصص الكتاب والسنة مسار الكتاب من قسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب جامعة الملك فيصل.

وقد حرص الباحث على بيان الجوانب التي تؤدي لحماية الفكر من الانحراف والزيغ مستدلاً بآيات القرآن الكريم وقد أجاد الباحث وفقه الله في بيانه لآثار حماية الفكر على الفرد والمجتمع كما بينها القرآن الكريم وفصلها.

وجمعية تبيان عندما تقدم للقارئ هذه المادة تقوم بواجب أصيل من واجباتها التي أنشئت من أجله وهو نشر البحوث والدراسات التي تفيد المجتمع وتسهم في حل مشكلاته.

والحمد لله رب العالمين.

رئيس مجلس إدارة الجمعية

أ.د/ العباس بن حسين الحازمي

شكر وتقدير

من باب الإحسان ، وامتثالاً لقول النبي ﷺ: «**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَّ**»(١) .

فإني أشكر الله سبحانه وأثني عليه الخير كله ، على نعمه وآلائه ، وله الحمد كثيراً على إعانته لي لإتمام هذا البحث ، وأثني بالشكر لوالدتي المعلمة الفاضلة على تشجيعها لي وأسأل الله أن يطيل في عمرها على طاعته ، كما أتقدم بالشكر الجزيل لجامعة الملك فيصل ممثلة في عميد كلية الآداب الأستاذ الدكتور ظافر الشهري، ووكيل الكلية للدراسات العليا الدكتور علي الشهري ، والشكر موصول إلى الدكتور زياد الحمام رئيس قسم الدراسات الإسلامية وجميع الأساتذة في القسم ، وأخص بالشكر الجزيل مشرف البحث أستاذي الدكتور طارق الرفاعي ، الذي لم يأل جهداً في توجيهي وإبداء ملاحظاته وأرائه التي استفدت منها كثيراً .

الشكر موصول أيضاً إلى لجنة المناقشة الأساتذة الكرام، الدكتور علي الشهري – ممتحناً داخلياً – والدكتور عبد القادر محمد أحمد الأستاذ المشارك بجامعة الإمام كلية الشريعة بالأحساء – ممتحناَ خارجيا – .

ولا يفوتني أيضا أن أتقدم بالشكر إلى من وقف بجانبي وصبّرني ، زوجتي

---

(١) رواه الترمذي في سننه ، رقم ١٩٥٤ ، باب / ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ، ج ٤ ص ٣٣٩ ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ . وحكم عليه الألباني أنه صحيح في كتابه صحيح الجامع الصغير وزياداته ، رقم ٦٦٠١ ، باب / حرف الميم ، ج ٢ ص ١١٢٢ ، الناشر المكتب الإسلامي .

الفاضلة وأولادي، وإلى الأخوة الكرام أبناء صالح بن داود المغلوث على رعايتهم للكتاب .

وختاماً لا أدعي أني قد اشبعت هذا الموضوع بحثاً وتمحيصاً ، فإنه لا يزال يتقبل النظرة الفاحصة من كل باحث، ويبقى الجهد ، جهدٌ بشري يعتريه النقص، والكمال في أعمال البشر محال، فأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم ، وأن ينفع به .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وأخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين .

❊❊❊

المقدمة

إن الحمد لله نحمده و نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾] سورة آل عمران، الآية (١٠٢). [يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾] سورة النساء، الآية [1]

[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾] سورة الأحزاب، الآيات (٧٠-٧١).

أما بعد:

فالفكر السليم له أهمية عظمى في بناء الأمم، وحفظها من الزلل والانحراف، والقرآن الكريم هو المنهج الذي ارتضاه رب العالمين لصالح البشرية في الحال والمآل، وصلاح الفكر له دور بارز في حياة الناس واستقرارهم، وأمة الإسلام أولى من غيرها من الأمم الأخرى في حماية فكرها وثقافتها وهويتها من الغزو الفكري الذي يتجدد في أساليبه، ويتنوع في أشكاله؛ لذا كان من الواجب تسليط الضوء على هذا الموضوع.

وبعد السؤال والبحث قد وقع اختياري على موضوع: حماية الفكر في ضوء

القرآن الكريم؛ ليكون موضوعاً للبحث التكميلي لمتطلبات مرحلة الماجستير، وسميته: «**حماية الفكر في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)**»

أهمية وأسباب اختيار الموضوع:

١. حاجة المجتمع الإسلامي إلى دراسة علمية مؤصلة حول منهج حماية الفكر في القرآن الكريم.
٢. بيان منهج حماية الفكر كما صوَّره القرآن الكريم للأخذ به.
٣. معرفة خطورة الفكر المنحرف، وأنه لا يمكن أن يتداركه الإنسان إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم، وهدي النبي ﷺ.
٤. استجابة لنتائج وتوصيات العديد من الأبحاث والدراسات العلمية التي تؤكد على ضرورة التطرق لمثل هذه المواضيع التي تمس الواقع المعاصر وربطها بالقرآن الكريم.

أهداف الموضوع:

تهدف هذه الدراسة إلى الآتي:

١- بيان وجوه عناية القرآن الكريم بالفكر وضبطه.
٢- إبراز دور القرآن الكريم في حماية الفكر وتقويمه.
٣- بيان الأمور التي ينبغي اجتنابها لحماية الفكر للابتعاد عنها.
٤- الوقوف على الأمور التي يجب التزامها لحماية الفكر والتمسك بها؛ فهي النجاة في الدنيا والآخرة.
٥- الخروج بدراسة تأصيلية لهذا الموضوع مستوعبة لجميع جوانبه

مستندها الوحي للعمل بها في ضوء التأويل عند أهل العلم من المفسرين.

الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع والبحث في المحركات الإلكترونية -والتي منها: قاعدة بيانات أوعية الدراسات القرآنية لمعهد الشاطبي، والفهرس العربي الموحد، ومحركات البحث في الجامعات السعودية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، لم أجد على – حد اطلاعي – دراسة تناولت جميع مفردات دراستي المقدَّمة، سوى بعض الرسائل والأبحاث التي تتشابه مع الموضوع من ناحية العناوين دون المساس أو التقاطع في المضمون والمحتوى، وهي لا تتعارض مع ما تضمنته دراستي المقدَّمة، ومنها الآتي:

١- الأمن الفكري في الشريعة الإسلامية (بحث تكميلي ماجستير في الجامعة الإسلامية) بغزة، كلية الشريعة والقانون في قسم الفقه، للباحث / رامي تيسير فارس لعام ١٤٣٣هـ، وقد تَطَرّق الباحث في بحثه إلى الأمن من الناحية الفقهية ووسائله وضوابطه، وعرَّج على الانحراف، وبيان أسبابه ومظاهره، وختم دراسته بالعلاج للانحراف من الناحية الفقهية البحتة، وقد كانت أهم النتائج التي توصل إليها الباحث في رسالته:

أ - تحديد محاضن الأمن الفكري وهي: المسجد والتعليم والإعلام.

ب - أنَّ للأمن الفكري وسائل لتحقيقه مستمدة من مبادئ الشريعة الإسلامية.

ج - شمولية الشرع لجوانب الحياة بحيث يجد كل صاحب حاجة بغيته فيه.

وأما دراستي فتتناول حماية الفكر من خلال توجيهات القرآن الكريم وليس من الناحية الفقهية.

٢- التدابير الواقية من الانحراف الفكري (دراسة تأصيلية) بحث مقدم لاستكمال درجة الماجستير (بجامعة الأمير نايف للعلوم الأمنية)، للباحث/ تميم عبدالله السليمان، لعام ١٤٢٧هـ، وقد تَطَرّق الباحث في بحثه إلى مفهوم الانحراف الفكري، وأهم التيارات الفكرية المنحرفة عبر التاريخ الإسلامي، وأهم صور وأسباب الانحراف الفكري والتدابير الشرعية الواقية من الانحراف، ودور المؤسسات الرسمية وغير الرسمية في وقاية المجتمع من الانحراف. وهي الفكرة الأساسية في الكتاب وقد كان من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث ما يلي:

أ - تعتبر الشريعة الإسلامية هي أدقُ ميزان يقيس السلوك البشري.

ب - الانحرافات الفكرية الناتجة من الداخل أو الوافدة من الخارج هي أخطر ما يواجه الأمة ويجب البحث عن آليات لمواجهتها.

ج - التآمر على الإسلام بدأ منذ فجر الدعوة وإلى الآن لم تهدأ ضراوة هذا التآمر مما يدعو إلى اليقظة والحذر من العبث بعقول الأجيال.

أما دراستي فهي دراسة تفسيرية لحماية الفكر من خلال القرآن الكريم.

٣- مفهوم الأمن الفكري في الإسلام، للباحثة / أمل محمد نور، بحث

تكميلي ماجستير في (جامعة أم القرى)لعام ١٤٢٧هـ، وقد تَطَرّقت الباحثة في بحثها للموضوع إلى مفهوم الأمن، وأهميته وخصائصه، ومزاياه والوقوف على مفهوم الأمن الفكري في الإسلام، وبيان مخاطر فقده، وإبراز دور التربية الإسلامية في تعزيز الأمن الفكري، وبيان دور المؤسسات التربوية في تعزيز الأمن الفكري، وهي الفكرة الأساسية للرسالة، وقد كان من أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة في بحثها ما يلي:

أ – أن السنة النبوية قد جاءت فيها إشارات إلى اختلال الأمن الفكري في المجتمعات في آخر الزمان، وهو زمن الفتن، وقد دلتنا السنة النبوية على المسلك السوي حينئذٍ.

ب – أن مبدأ الوسطية من أهم الأسباب في تعزيز الأمن.

ج – للمؤسسات التربوية دور هام يجب أن تؤديه؛ لكي يُعزِّز الأمن الفكري لدى الناشئة.

أما دراستي فتُعْنَى بحماية الفكر من خلال القرآن، ولا تتعلق بجانب المؤسسات التربوية.

٤- جوانب الفكر والتفكر في القرآن الكريم، للباحث / محمود الهيشان، بحث تكميلي لدرجة الماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، لعام / ١٩٩٦م، وقد تَطَرّق الباحث في بحثه إلى جوانب الفكر والتفكُّر في القرآن الكريم، والتعرف على مفهوم العقل والتفكير في القرآن الكريم، ووسائل التفكير وأقسام الحواس ونظرة القرآن إلى الحواس،

والدراسة معنية بجوانب الفكر والتفكُّر في القرآن، ولا يقصد منه حماية الفكر، وقد كان من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث في رسالته ما يلي:

أ - أن العقل ليس شيئاً ماديا وإنما يُعرف بوظيفته في التعقل والإدراك والتفكر.

ب - اهتم القرآن بالحواس ودعا إلى توجيهها توجيهاً مقصوداً للإدراك والفهم ونهى عن تعطيلها.

٥- مفهوم الأمن الفكري (دراسة تأصيلية في ضوء الإسلام) للباحث/ ماجد الهذيلي، بحث تكميلي ماجستير، بجامعة الإمام محمد بن سعود، لعام / ١٤٣٢هـ، لقسم الثقافة الإسلامية، وقد تَطَرّق الباحث في رسالته إلى تأصيل مفهوم الأمن الفكري في ضوء الإسلام، ونشأة هذا المفهوم وتطوره، وبيان بعض التيارات الفكرية المنحرفة والتي تؤدي إلى ضعف الأمن الفكري، وقد كان من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث في رسالته ما يلي:

أ - أن الأمن بمفهومه الواسع يشمل الأمن في الجانب النفسي، والجانب الجنائي، والسياسي، والشرعي، وفي كل جوانب الحياة.

ب - أن نشأة مفهوم الأمن الفكري جاءت في مرحلة متأخرة وقد كان للعلماء والدعاة في تاريخ الأمة الإسلامية جهود كبيرة في السعي لتحقيق الأمن الفكري.

هذا وبالجملة فإن دراستي تتناول حماية الفكر من خلال الارتباط بالقرآن

بمنهج تأصيلي، بالإضافة إلى المباحث الجديدة التي أضفتها لبيان ما ينبغي الحذر منه لحماية الفكر، والأمور التي يجب التزامها لحماية الفكر، والآثار الناتجة عن حماية الفكر على الفرد والمجتمع من خلال القرآن الكريم.

منهج البحث وخطته

تقتضي طبيعة البحث أن أتبع المناهج العلمية التالية:

١. المنهج الاستقرائي.

٢. المنهج الاستدلالي.

٣. المنهج الاستنباطي.

٤. المنهج الوصفي.

و يسير البحث وفق منهجية التفسير الموضوعي المتعارف عليها عند أهل الفن من خلال جمع واستقراء الآيات الواردة في حماية الفكر، ومسلك هذا البحث يَتمثَّل فيه ما يلي:

١- الحرص على أن يكون البحث معتمداً على ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، ومستشهدا على ما أُورده بالآيات والأحاديث الثابتة الصحيحة.

٢- اتَّباع منهج التفسير التحليلي في بحث كل جزئية، مكتفياً في ذلك بما يتحقق به القصد والاستشهاد له.

٣- الاعتماد في مجمل البحث على المصادر الأصلية، وأمهات الكتب المعتبرة عند العلماء وكذلك ما تقتضيه طبيعة البحث في قضايا معاصرة أو نحوها.

٤- التوسع في بعض المباحث التي تحتاج إلى تفصيل مراعاة لأهميتها، وحاجة الناس إليها.

٥- الحرص على أن يكون هذا البحث مرتبطاً بالواقع، وعلاجاً لقضايا معاصرة.

٦- التحري في كتابة البحث سهولة الأسلوب مع سلامة اللغة قدر طاقتي.

٧- الترجمة لبعض الأعلام المشهورين.

٨- مراعاة كل القواعد المعتبرة التي أقرها قسم الدراسات الإسلامية.

خطة البحث:

قسمتُ الدراسة إلى تمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، وهي كالتالي:

التمهيد وتناولت فيه:

١. تعريف الفكر لغة واصطلاحا.

٢. تعريف التفكير لغة واصطلاحا.

٣. الفرق بين الفكر والتفكير

٤. أهمية حماية الفكر.

الفصل الأول: ما يجب اجتنابه لحماية الفكر، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أعراف الجاهلية كتعطيل الفكر وتقليد الأسلاف.

المبحث الثاني: الحذر من صحبة السوء والاغترار بهم.

المبحث الثالث: القول على الله بغير علم.

المبحث الرابع: الاغترار بما عليه أهل الكفر والانبهار به.

الفصل الثاني: الأمور التي ينبغي التزامها لحماية الفكر، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: إعمال العقل والبعد عن الظن.

المبحث الثاني: التسلح بالعلم الشرعي.

المبحث الثالث: الثبات على الحق والبعد عن التقليد المذموم.

المبحث الرابع: رد الحكم إلى الله والرسول عند الاختلاف من خلال القرآن الكريم.

المبحث الخامس: التربية الإيمانية والدعاء بالثبات.

الفصل الثالث: آثار حماية الفكر وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آثار حماية الفكر على الفرد.

المبحث الثاني: آثار حماية الفكر على المجتمع.

الخاتمة: وفيها ما توصَّلتْ إليه الدراسة من النتائج والتوصيات.

❊❊❊

التمهيد

في هذا التمهيد نتعرف على مفهوم الفكر في اللغة والاصطلاح، وعلى دلالات كلمة التفكُّر والعلاقة بينها وبين الفكر، كما سنذكر أهمية حماية الفكر.

أولاً: تعريف الفكر لغة واصطلاحا:

لفظ الفكر له معان متنوعة واستعمالات عدة تراكمت بمرور الزمن حتى أصبح إطلاقها دون تحديد يوقع كثيراً من اللبس.

وفي هذا التمهيد نؤصل هذا اللفظ ونلقي الضوء على دلالاته في اللغة والاصطلاح، ونُبيِّن الفرق بينه وبين التفكير.

الفكر لغة: لقد تعددت الأقوال في تعريف الفِكر وكلها تدور حول معنى واحد.

فمن هذه التعريفات:

أولاً: قال الجوهري [١] في الصحاح: «الفكر بالكسر ويفتح: إعمال النظر، والتفكُّر: التأمل» [٢].

ثانياً: قال ابن فارس [٣] في معجم مقاييس اللغة: «الفاء والكاف والراء:

---

(١) الْجَوْهَري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، كان أديباً فاضلاً، أخذ عن أبي علي الفارسي، وعن خاله أبي إبراهيم الفارابي، وصنف الصحاح في اللغة. [نزهة الألباء في طبقات الأدباء ج ١ ص ٢٥٢]

(٢) الجوهري، صحاح العربية (مادة فكر) ج٢ ص٧٨٣، دار العلم للملايين بيروت، ط الرابعة ١٤٠٧هـ.

(٣) ابن فارِس، الإمام العلامة، اللغوي المحدث، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب القزويني المعروف بالرازيّ، المالكي، اللغوي، نزيل همذان، وصاحب كتاب «المجمل ». [سير أعلام النبلاء ج ١٢ ص ٥٣٨][وفيات الأعيان ج١ ص ١١٨].

تردد القلب في الشيء، يقال تفكُّر إذا ردد قلبه مقيداً، ورجل فِكّير أي كثير الفكر»[١].

ثالثا: ما ذكره ابن منظور [٢] في كتابه لسان العرب في مادة فَكَرَ حيث قال: «الفَكْرُ والفِكْرُ: إِعمالُ الْخَاطِرِ فِي الشَّيْءِ»[٣].

رابعا: ما ذُكر في المعجم الوسيط: «الفكر مقلوب من الفرك لكن يستعمل الفكر في الأمور المعنوية وهو فرك الأمور وبحثها للوصول إلى حقيقتها»[٤].

مما سبق من تعريف لكلمة فكر في اللغة، اتضح أنها تدور حول معنى التأمل والتدبر وإعمال العقل.

الفكر اصطلاحاً: عُرِّفَ الفكر بتعريفات كثيرة أشهرها:

تعريف الراغب الأصفهاني[٥] بأنه: «قوةٌ مُطرِّقةٌ للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للإنسان دون الحيوان ... ورجل فِكِّير كثير الْفِكْرَة.

---

(١) ابن فارس، مجمل اللغة، (مادة فكر) ج١ ص٧٠٤، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الثالثة ١٤٠٦هـ.

(٢) ابن مَنْظُور (٦٣٠ - ٧١١ هـ)، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، صاحب (لسان العرب)، الإمام اللغوي الحجة. [الأعلام للزركلي ج٧ ص ١٠٨].

(٣) ابن منظور، لسان العرب مادة فكر ج٥ ص٥٦، دار صادر بيروت، ط الثالثة ١٤١٤هـ..

(٤) انظر: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، خالد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط مادة (فكر) ج٢ ص٦٩٨ مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

(٥) الرَّاغِب الأَصْفَهَاني، المفضل بن محمد الأصبهاني الراغب، (٠٠٠ - ٥٠٢ هـ) صاحب المصنفات، كان في أوائل المئة الخامسة، له: مفردات القرآن، وأفانين البلاغة، من الحكماء العلماء، من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي.[بغية الوعاة ج ٢ ص ٢٩٧]، [الأعلام ج ٢ ص ٢٥٥].

قال بعض الأدباء الْفِكْرُ مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر في المعاني وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها»[١].

وفي الكليات لأبي البقاء الكفوي[٢]: «الفكر حركة النفس نحو المبادئ والرجوع عنها إلى المطالب» [٣].

وعرفه الجرجاني [٤]: «التدبُّر عبارة عن النظر في عواقب الأمور وهو قريب من التفكر إلا أن التفكر تصَرُّف القلب بالنظر في الدليل ؛ والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب» [٥].

مما سبق من تعريفات يتضح أن الفكر في الاصطلاح يطلق على معنيين:

المعنى الأول: الفعل الذي يقوم به العقل عند حركته في المعقولات كالنظر والتأمل.

المعنى الثاني: المعقولات نفسها وهي: الموضوعات التي أنتجها العقل

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج ١ ص ٦٤٣، ط ١ عام / ١٤١٢ ه، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، تحقيق: صفوان عدنان الداودي.

(٢) أَبُو البَقاء الكفوي، (٠٠٠ - ١٠٩٤ هـ)، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء: صاحب (الكليّات – ط)، كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في (كفه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد، وعاد إلى إستانبول فتوفي بها، ودفن في تربة خالد، وله كتب أخرى بالتركية. [الأعلام للزركلي ج٢ ص ٣٨].

(٣) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ج ١ ص٦٩٧، مؤسسة الرسالة، ط الثانية، ١٤١٩هـ، ت / عدنان درويش – محمد المصري.

(٤) الْجُرْجَاني، (٧٤٠ - ٨١٦ هـ)، علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية، ولد في (تاكو) ودرس في شيراز، وفَرَّ إلى سمرقند، ثم عاد إلى شيراز فأقام إلى أن توفي، له نحو خمسين مصنفا، منها «التعريفات» و«شرح مواقف الإيجي» وغيرها. [الأعلام للزركلي ج ٥ ص ٧].

(٥) الشريف الجرجاني، التعريفات ص٥٥، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط الأولى ١٤٠٣ هـ.

البشري، فهما معنيان يترتب أحدهما على الآخر، الأول هو الفعل الذي يقوم به العقل، والثاني نتيجة هذا الفعل (المعقول نفسه).

إذاً عندما نقول المعنى الاصطلاحي نتحدث عن الحركة وعن النتيجة فمثلاً: الاستنباط أو القياس: هو عمل للفكر عندما يقيسه الفقيه أو المفكر، فالقياس عمل للفكر و حركة للعقل لإدراك الشيء ويراد به المعنى الأول.

أما المعنى الثاني: المعقولات بناءً على القاعدة الأصولية أو قاعدة المصطلحات وهي: أفكار وهو نتاج حركة العقل، يعني عندما تحرك العقل تنتج عندنا أفكاراً.

هذا هو التعريف اللغوي والاصطلاحي لكلمة فكر.

ويؤخذ من هذه التعريفات جميعاً أن الفكر هو: «إعمال العقل والتأمل في الشيء، وتقليبه على وجوهه المختلفة للوصول إلى حقيقته، وهذا الفكر خاص بالإنسان دون الحيوان».

ثانياً: التفكير في اللغة والاصطلاح:

تتعدد تعريفات التفكير وتتنوع مفاهيمه وتتشعب تبعا لتعدد المذاهب والاتجاهات، فكل شخص يعرفه من زاويته الخاصة بحسب المجال العلمي الذي يتخصص فيه، والمنهج الذي يسير عليه، وفيما يلي عرض لبعض التعريفات:

التفكير لغة:

من فكّر في أمر أي: أعمل العقل فيه ورتب بعض ما يعلم ليصل به إلى المجهول[١].

(١) مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط – ج ٢، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، استانبول تركيا.

الفِكر بالكسر: تَرَدُّد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني، وَلِيَ في الأمر فكرٌ أي: نظر ورؤية [١].

التفكير اصطلاحا:

هناك تعريفات عديدة للمعنى الاصطلاحي لكلمة التفكير منها:

١. قيل هو «سلسلة من النشاطات العقلية التي يقوم الدماغ بها عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحد أو أكثر من الحواس الخمس، والتفكير بمعناه الواسع عملية بحث عن معنى في الموقف أو الخبرة، وقد يكون هذا المعنى ظاهرا حينا وغامضا حينا آخر»[٢].

٢. وقيل: «هو طاقة وهبها الله للإنسان يشترك في نشاطها وعملها أكثر من عضو في الإنسان، من بينها: القلب، الدماغ، الجهاز العصبي وغيرها...، وهي طاقة تعمل بصورة مستمرة لا تتوقف إلا بموت الإنسان، والتفكير هو ثمرة تفاعل بين عوامل ذاتية وعوامل خارجية تؤثر في فطرة الإنسان، ويمضي ذلك كله على سنن الله الثابتة التي قد نعرف بعضها وقد نجهل بعضها»[٣].

٣. وقيل «هو عملية عقلية يوظف فيها الفرد خبرته وتجاربه السابقة وقدرته الذهنية؛ لاستقصاء ما يقابله من مواقف أو مشكلات

---

(١) الفيومي – أحمد محمد علي – المصباح المنير – ط ١ دار الحديث، القاهرة.

(٢) جروان، فتحي عبد الرحمن، تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات، ط ١ دار الكتاب العربي – عمان الأردن، ١٩٩٩ م.

(٣) النحوي – عدنان علي رضا، النهج الإيماني في التفكير – ط ١ دار النحوي – الرياض ٢٠٠١م.

بغرض الوصول إلى نتائج أو قرارات مألوفة أو غير مألوفة، وتتطور هذه العملية بناء على ما يتلقاه من تعليم أو تدريب» [١].

ثالثاً: الفرق بين الفكر والتفكير:

الفكر: هو العمليات العقلية العليا التي لا يمكن للحيوان أن يقوم بها، مثل: إصدار الأحكام، والتجريد، والاستنتاج، والاستقراء، والتعميم.

والتفكير: نشاط ذهني مستمر يقوم به الإنسان طوال حياته وهو من أعقد الأنشطة البشرية.

فالعلاقة بين الفكر والتفكير علاقة معنوية والفارق بينهما، أن التفكير هو الطريقة التي يعالج بها المخ معطيات الواقع، بينما الفكر هو النتيجة التي يصوغها المفكر من فرضيات ونظريات وقوانين عامة.

أما التفكر: فهو أعمق من التفكير، وهو التمعن والتمحيص وجمع المعلومات.

رابعاً / أهمية حماية الفكر:

إن استقامة الحياة الدنيا وسعادتها لا تحصل إلا إذا كان الإنسان آمنًا على نفسه، مرتاح القلب، هادئ النفس؛ لا يخاف من وقوع مكروه يهدد أمنه، أو ينتقص دينه، أو ينتهك حرماته، أو يستلب خيراته، أو يفرض عليه ما يتعارض مع دينه وثقافته من أفكار ومذاهب وأخلاق.

وبناءً على ذلك فإن على المسلم أن يكون دائمًا يقظ القلب، دائم البحث

---

(١) الكثيري – راشد بن حمد وآخرون، التفكير ماهيته أبعاده أنواعه أهميته، المؤتمر الثاني عشر، ج ٢ – مناهج التعليم وتنمية الفكر – جامعة عين شمس – ٢٠٠٠ م.

والنظر، سريع الحركة، عالي الهمة، موظفًا كل قدراته، باذلا نفسه وطاقته، ومسخرًا قلمه وفكره في سبيل الحفاظ على مقاصد دينه، وتعزيز كيانه، والحفاظ على أمنه من غائلة الأحداث، ومكر الأعداء.

ولا شك في أن من أَوْلَى ما صُرِفت إليه الجهود، وعُنيت به العقول، واشتغل به أولو العلم هو: موضوع الفكر وحمايته، وحماية الفكر تنبع من ارتباطه بدين الأمة، وأساس ذكرها وعلوها، وسبب مجدها وعزها، ومن غايته المتمثلة في سلامة العقيدة، واستقامة السلوك، وإثبات الولاء للأمة، وتصحيح الانتماء لها.

ويتحكم الفكر الذي يحمله الإنسان في أسلوب حياته، فمن يحمل فكراً سديداً يسلك سلوكاً سليماً، ومن يحمل فكراً منحرفاً فإنه سيسلك سلوكاً منحرفاً

وفي هذا يقول الحق تعالى: [وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾] سورة الأنعام، الآية (١٥٣).

فنهى الله، سبحانه عن أن يتبع الإنسان السبل والطرق وهي: الشبهات والشهوات التي تخالف طريق الهداية والحق، وجعل الهداية في اتباع طريق واحد وهو: الطريق المستقيم.

ولا شك في أن حماية الفكر حاجة ضرورية لا تستقيم الحياة بدون توفرها، وذلك لعدة أسباب، منها:

أولاً: أن حماية الفكر إحدى مكونات الأمن بصفة عامة، بل هي أهمها وأسماها وأساس وجودها واستمرارها، والأمن هو النعمة التي لا يمكن أن تستقيم الحياة بغيرها، ولذلك امتنَّ الله هذه النعمة على كفار قريش.

قال تعالى: [فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾] سورة قريش، الآيات (٣-٤).

وقال تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾] سورة العنكبوت، الآية (٦٧).

وجعل الرسول ﷺ مَنْ توفر له الأمن كمن حيّزت له الدنيا كُلّها، فقد أخرج الترمذي -وحسَّنه الألباني- عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيّي عَنْ أَبِيهِ -وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ – قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**» (١).

ثانيًا: أن حماية الفكر تتعلق بالمحافظة على الدين، التي هي إحدى الضرورات الخمس التي جاءت الشريعة الإسلامية بحمايتها والمحافظة عليها: إن الإسلام هو دين الأمة، لقوله سبحانه: [إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾] سورة آل عمران، الآية (١٩).

والإسلام هو مصدر عزها وقوتها، وهو أساس تمكينها في الأرض، لقوله سبحانه ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ سورة النور، الآية (٥٥).

---

(١) عيسى محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب الزهد ج٤ ص٥٧٤،رقم ٢٣٤٦،، الطبعة الثانية- مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٩٥ هـ، حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ط المكتب الإسلامي بدون تاريخ للطبعة، برقم ٦٠٤٢، ج٢ ص١٠٤٤.

والإسلام هو مصدر ثقافة الأمة، ومستند علومها ومعارفها، وهو أساس علوها وتميزها، لذلك كان في الأمن الفكري الحماية لهذه الأسس والمرتكزات، والإخلال به إخلال بها، وهو ما يجعل الأمة عرضة للزوال، والتأثر بأديان الأمم الأخرى وثقافاتها وأفكارها، وبذلك تفقد سر تميزها، وأساس وجودها وعظمتها.

ثالثاً: أن حماية الفكر غايته استقامة المعتقد، وسلامته من الانحراف، واتباع منهج الحق، ووسطية التديّن، ولذلك فإن الإخلال به يعرض الإنسان لأن يكون عمله هباءً منثورًا لا ثقل له في ميزان الإسلام، قال تعالى: [وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾] سورة الفرقان، الآية (٢٣).

وقال سبحانه: [هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾] سورة الغاشية، الآيات (١-٤).

وذلك هو الخسران المبين، لقوله سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة الزمر، الآيتان (١٤، ١٥) (١).

والفكر عملية ذهنية مسرحها العقل، ومؤداها التأمل والنظر، وثمرتها استنباط واستخراج العلوم والمعارف، ولكي تتحقق السلامة لهذا النظر من الزلل، ولثمرته الاستقامة والبعد عن الخلل، فلابد من التزام منهج الإسلام في التفكير، وما ينتج عن ذلك التفكير من علوم ومعارف.

---

(١) انظر: د.عبد الرحمن اللويحق، الأمن الفكري: ما هيته وضوابطه، ضمن كتاب الأمن الفكري، ص ٦٠، ٦١، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - الرياض: جامعة نايف العربية، مركز الدراسات والبحوث.

وبناءً على ذلك فإن حماية الفكر يجب أن تكون متحققةً في حالتين:

١. عند التأمل وتردد النظر.

٢. وفي الموضوعات التي أنتجها العقل بناء على ذلك النظر.

وعندما نتأمل آيات القرآن الكريم فإننا نجد:

١. أنه يهدف في كثير من الآيات إلى أن يصل الإنسان من خلال تفكيره إلى أحكام صحيحة وصائبة، مبنية على استدلال صحيح وبرهان.

فقد عاب على المشركين الذين لم يقدهُم تفكيرُهم إلى الصواب، ولم يصلوا إلى أحكام ونتائج منسجمة مع مقدماتها، يقول الحق، سبحانه وتعالى، في حق أحد زعماء المشركين، وهو الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ سورة المدثر، الآيات (١٨ – ٢٩).

ومما ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة:

عنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا ! قَالَ: لَمَ ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ ؟! «فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ

لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى عليه وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ» قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ ! قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ[ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا] سورة المدثر، الآية (١١)» (١).

٢. كما أن القرآن الكريم يستنكر على المشركين إعراضهم عن النظر والتفكر في هلاك الأمم الماضية، فيقول سبحانه: [أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ] سورة غافر، الآية (٨٢).

فالنظر في مآل الكفار وما حلَّ بهم، فيه دعوةٌ إلى أن يتعظَ الإنسانُ ويحفظَ فكره من أن يتلبس بتلك الشبهات والشهوات، فمصيرُه ومصير من سار نحوها أو سلكها هو مصير ما حلَّ بالأمم الماضية.

وأمر مهم هنا وهو صيانة العقل من الانحراف حال النظر والتأمل، فالعقل لا يستطيع أن يخوض في كل مجال، ولا أن يدرك حقائق جميع الأشياء، ولذلك جعلت نصوص الوحي حدودًا معينةً للعقل يجب عليه ألا يتعداها؛ لأن في تعديها خطرًا على العقل، أو إشغاله بما لا فائدة فيه.

قال الشاطبي(٢): «إِنَّ اللهَ جَعَلَ لِلْعُقُولِ فِي إِدْرَاكِهَا حَدًّا تَنْتَهِي إِلَيْهِ لَا تَتَعَدَّاهُ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا سَبِيلًا إِلَى الْإِدْرَاكِ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ، وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، باب تفسير سورة المدثر، ج٢ ص ٥٥٠، دار الكتب العلمية بيروت، ط١ عام ١٤١١هـ، وقال الذهبي حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه، والبيهقي في شعبه، باب الإيمان برسل الله صلوات الله عليهم، ج١ ص ٢٨٧، الناشر مكتبة الرشد بالرياض، ط١ عام ١٤٢٣هـ.

(٢) الشاطبي (٠٠٠ - ٧٩٠ هـ)، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، المالكي الشهير بالشاطبي، (أبو إسحاق)، محدث، فقيه أصولي، لغوي، مفسر، من مؤلفاته: «الموافقات في أصول الأحكام»، «عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق» و«الاعتصام». [معجم المؤلفين ج١ ص١١٨].

لَاسْتَوَتْ مَعَ الْبَارِي تَعَالَى فِي إِدْرَاكِ جَمِيعِ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ، إِذْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، فَمَعْلُومَاتُ اللهِ لَا تَتَنَاهَى، وَمَعْلُومَاتُ الْعَبْدِ مُتَنَاهِيَةٌ، وَالْمُتَنَاهِي لَا يُسَاوِي مَا لَا يَتَنَاهَى»[1].

ولذلك يجب صيانة الفكر حال التأمل من:

أولًا: النظر والتأمل فيما لا يدركه العقل:

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ سورة الأسراء، الآية (٨٥).

فقد أبان الله سبحانه في هذه الآية أن الروح مما استأثر الله بعلمه، والاشتغال بما استأثر الله بعلمه ضرب في البيداء، ولا قُدرة للعقل في التعرف عليه؛ لأنه فوق مرتبة العقل.

وقد جعل الله النظر في متشابهات القرآن سبيل أهل الزيغ والفساد، فقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ سورة آل عمران، الآية (٧).

وذلك؛ لأن بعض المتشابه لا سبيل إلى الوقوف على حقيقته، إنما هو موضع خضوع العقول لباريها استسلامًا واعترافًا بقصورها[2].

---

(١) الشاطبي، الاعتصام،ج٢ ص٨٣١، ط الأولى ١٤١٢هـ، دار ابن عفان - السعودية.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج٨ ص٢١٠، دار المعرفة - بيروت ١٣٧٩ هـ، عناية وترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي.

فالاشتغال به يقود إلى الضلال، والخروج عن مقتضى العبودية والاستسلام لله رب العالمين. وقد جاء عن النبي ﷺ أحاديث ترسم للعقل حدوده، وتعقله عن الخوض في غير مجاله، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في الله**»(١).

وأخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه– قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:« **لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ**»(٢).

وروى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: «**أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَتَنَازَعُوا فِيهِ** »(٣).

لقد أخبرنا الله عن نفسه، فقال سبحانه: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ ﴾ سورة الشورى، الآية (١١).

فالتفكر في ذاته تعالى إشغال للعقل بما ليس في وسعه أن يدركه، وزجٌّ به في متاهات لا توصل إلى الحق، بل إلى الريبة والشك والاضطراب، ولذلك جاء

---

(١) رواه البيهقي في شعبه، برقم ١٢٠، ج١ ص١٣٦، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى ١٤١٠هـ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج٤ ص ٣٩٥.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، ج١ ص٨٣.

(٣) رواه الترمذي، الجامع الصحيح -كتاب القدر – باب ما جاء في التشديد في القدر، ج٤ ص٤٤٣، ح ٢١٣٣، وحسّنه الألباني في المشكاة، ج١ ص٣٦.

النهي صريحًا عن التفكر في ذات الله؛ لأنه لا يصل فكر الإنسان -مهما أعمله- إلى إدراك كنه ذات الله سبحانه وكيفيته ؛ لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات، وأما الخالق -جلَّ جلاله سبحانه وتعالى- فليس له شبيه ولا نظير، فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه، وإنما هو معلوم بالفطرة فيذكره العبد، وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه: يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة، لا تُنال بمجرد التفكير والتقدير(١).

والكلام في القَدَر قول بلا علم؛ فإن القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى لم يُطلعْ عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً، لا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل(٢)؛ فالتعمق والنظر فيه ضلالة.

ولمخالفة هذا ؛ضلَّ أهل البدع حين حَكَّمُوا عقولهم، وَرَدُّوا إليها ما جهلوه من معاني القدر وشبهه، وهذا خطأ منهم؛ لأن عقول العباد لها نهاية، وعلم الله لا نهاية له.

قال الله، عزّ وجلّ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾ سورة البقرة، الآية (٢٥٥).

فما أخفاه عنهم فهو سِرُّ الله الذي استأثر به، فلا يحل تعاطيه، ولا يُكلَّف

(١) انظر: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٤ ص٣٩، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٢٦هـ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم.

(٢) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، شرح السنّة، ج١ ص١٤٤، ط٢ بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ، تحقيق: زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط.

طلبه، فإن المصلحة للعباد في إخفائه منهم، والحكمة في إخفائه عنهم إلى يوم تُبلى السرائر، والله هو الحكيم العليم، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ سورة المؤمنون، الآية (٧١).

إن قضايا الغيب لا ينبغي الخوض فيها، ولذلك فإن غاية حظ العقل منها سوى الفهم والتسليم، وإثبات إمكانها، ونفي امتناعها[١].

ثانيًا: النظر والتأمل فيما لا فائدة من النظر فيه ومما يجب أن يُصان عنه العقل، و النظرُ والتأملُ فيما لا يعود على المكلف بفائدة في دينه ودنياه:

قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ سورة البقرة، الآية (١٨٩). ففي هذه الآية أجاب الله السائلين بغير ما يتطلبه سؤالهم، وذلك لأن الصحابة – رضي الله عنهم – لما تاقت نفوسهم إلى تعلم هيئة القمر منه ﷺ وقالوا له: يا نبي الله، ما بالُ الهلال يبدو دقيقًا، ثم لم يزل يكبر حتى يستدير بدرًا؟ نزل القرآن بالجواب بما فيه فائدة للبشر وترك ما لا فائدة فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ سورة البقرة، الآية (١٨٩).

وهذا الباب الذي أرشد القرآن العظيم إلى سده، لما فتحه الكفرة كانت نتيجة فتحه الكفر، والإلحاد، وتكذيب الله ورسوله من غير فائدة دنيوية، والذي

---

(١) انظر: سعود العريفي، الأدلة العقلية والنقلية على أصول الاعتقاد،ص٣٦، الطبعة الأولى - مكة المكرمة: دار عالم الفوائد ١٤١٩ هـ.

أرشد الله إليه في كتابه هو: النظر في غرائب صنعه، وعجائبه في السماوات والأرض؛ ليستدل بذلك على كمال قدرته تعالى، واستحقاقه للعبادة وحده، وهذا المقصد الأساسي لم يحصل للناظرين في الهيئة من الكفار (١).

وأخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**» (٢).

إن التعمق في بحث المسائل التي لم تقع، والإكثار من الأسئلة على سبيل التعنت لا فائدة من ورائه، بل هو إشغال للنفس بما قد يؤدي بها إلى التهلكة، والتحلل من تكاليف الدين، واشغال للفكر، والوقوع فيما حرّمه الله ونهى عنه، والمسائل على وجهين:

أحدهما: ما كان على وجه التعليم لما يحتاج إليه من أمر الدين فهو جائز بل مأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة الأنبياء، الآية (٧).

ثانيهما: ما كان على وجه التعنت والتكلف، وهو المراد في هذا الحديث.

ويؤيده ورود الزجر في الحديث عن ذلك، ولذلك كان من سيرة السلف كراهته والتحذير منه.

قال الأوزاعي: «إن الله إذا أراد أن يحرمَ عَبْدَه بَرَكَةَ العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقل الناس علمًا»، وقال ابن العربي: «كان النهي عن السؤال

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ج٦ ص٧٢ ط، دار الفكر للنشر بيروت، ١٤١٥هـ.

(٢) صحيح البخاري برقم ٧٢٨٨، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ ج٩ ص٩٤.

في العهد النبوي خشية أن ينزل ما يشقُّ عليهم، فأما فيما بعد فقد أُمِنَ ذلك لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع»، قال: «وإنه لمكروه إن لم يكن حرامًا إلا للعلماء فإنهم فرَّعوا ومهدَّوا فنفع الله مَنْ بَعْدَهُم بذلك، ولا سيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم»(١).

ثالثًا: النظر والتأمل من الجاهل من خلال سؤاله عمَّا لا يعلم حتى يكون امتثاله واستسلامه لله على نور وهدى وبصيرة.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ سورة النحل، الآية (٤٣).

قال القرطبي(٢): «فَرْضُ العاميّ الذي لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها؛ لعدم أهليته فيما لا يعلمه من أمر دينه، ويحتاج إليه- أن يقصد أعلم مَنْ في زمانه وبلده، فيسأله عن نازلته، فيمتثل فيها فَتْوَاه ؛لقوله تعالى: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾(٣).

وروى أبو داود عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ -رضي الله عنه- قَالَ: خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلا مِنَّا حَجَرٌ، فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ،

---

(١) نقلا من فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج١٣ ص ٢٦٣، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩.

(٢) القرطبي، (٠٠٠ - ٦٧١ هـ)، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي، من كبار المفسرين، صالح متعبد، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها، من كتبه «الجامع لأحكام القرآن».[الأعلام ج٥ ص٣٢٢، معجم المؤلفين ج٨ ص٢٣٩].

(٣) أبو عبدالله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص٢١٢، دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٨٤ هـ.

فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ !أَلاَّ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِي السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ**» أَوْ «يَعْصِبَ »- شَكَّ مُوسَى -«عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ »[(١)].

قال الإمام الخطابي: «في هذا الحديث من العلم أنه عابهم بالفتوى بغير علم، وألحق بهم الوعيد بأن دعا عليهم، وجعلهم في الإثم قتلة له»[(٢)].

إننا حينما نمعن النظر في تلك الأدلة السابقة نجد أنها ترسم للعقل مجالا، وتحد له حدودًا ومعالم، وذلك لصيانته وحفظه من التطاول إلى ما لا يبلغه، وما ليس في وسعه إدراكه، ومنعًا له من الاشتغال بما لا يفيد.

رابعاً: النظر في كتب الضلالة، ومصادر الأفكار المنحرفة.

إن من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ العقل، ولا شك في أن مما يجب أن يُصان منه العقل النظرَ والتأملَ في المصادر، أو المناهج التي تُغذي العقل البشري بالأفكار والعقائد الفاسدة، وهي تشمل العقائد والمعلومات والمعارف كلَّها؛ سواء أكانت دينية أم اجتماعية أم سياسية أم عسكرية أم اقتصادية، فإن العقل إذا غُذِّي بعقائد وأفكار ومعلومات فاسدة- يسوء تصوره، ويفسد ويضل، ويصبح أخطر من العقل الخالي من المعلومات.

---

(١) رواه أبو داود برقم ٣٣٦، باب: في المجروح يتيمم ج١ ص٢٥٢، سنن أبي داود، لأبي داود سليمان السجستاني، ت/ شعيب الأرنؤط، دار الرسالة العالمية،ط. الأولى ١٤٣٠هـ،وصححه الألباني في صحيح أبي داود ج٢ ص١٥٨، ط مؤسسة غراس للنشر بالكويت ط الأولى ١٤٢٣ هـ.

(٢) أبو سليمان، حمد بن محمد الخطابي، معالم السنن، ج١ ص١٠٤، الطبعة الأولى، المطبعة العلمية - حلب ط ١٣٥١ هـ.

أخرج الدارمي عَنْ جَابِرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ - أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِنُسْخَةٍ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ نُسْخَةٌ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَسَكَتَ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَوَجْهُ رَسُولِ اللهِ يَتَغَيَّرُ، فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، مَا تَرَى بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَى وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ بَدَا لَكُمْ مُوسَى فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي، لَضَلَلْتُمْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَلَوْ كَانَ حَيًّا وَأَدْرَكَ نُبُوَّتِي، لَاتَّبَعَنِي**»(١).

إن في منع الفكر من الاشتغال بما ليس في وسعه إدراكه، وحفظه من الخوض في غير مجاله، وإبعاده عن الاشتغال بما ليس فيه فائدة-إن في ذلك فوائد جمَّة، وآثارًا حسنةً ترجع على صاحب الفكر والمجتمع الذي يعيش فيه، ومن تلك الفوائد:

أولاً: حماية المكلَّف من الحيرة والشك والاضطراب:

إن إطلاق سَراحِ العقل ليخوض في كل شيء، قد يُفضي به إلى الشك والحيرة والاضطراب! وعند ذلك، فلا يستغرب أن يُنْتِج لنا فكرًا مضطربًا ومُشَوَّشًا فيَضِل به، ويُضل.

ثانيا: حماية المكلَّف من اعتناق المذاهب المنحرفة والأفكار المضلة:

لقد كانت نتيجةُ إدخال العقل في مجال غير مجاله، والنظر في مصادر معرفية

---

(١) رواه الدارمي في سننه، باب ما يتقي من تفسير حديث النبي ﷺ، ج١ ص٤٠٣، ت / حسين سليم أسد، دار المغني للنشر بالرياض، ط الأولى ١٤١٢ه، وحسَّنه الألباني في المشكاة ج١ ص٦٨، ط المكتب الإسلامي - بيروت ط الثالثة ١٩٨٥ م.

لا تستند إلى المرجعية الإسلامية ؛كانت نتيجةُ ذلك اعتناق مذاهب وأفكار منحرفة بعيدة عن هدي الوحي، ووسطية الإسلام.

فالتكفير والإرجاء، والتشيّع، والاعتزال، والتأويل، والإعراض عن الشرع، والعقلانية، والديمقراطية، والعلمانية، والليبرالية، كل ذلك إنما كان عندما استقى الفكرُ معارفه من مصادر غير مأمونة، وحينما لم يُلتزم بالحدود الشرعية للعقل، وجُعل مصدرًا تتلقى منه العقائد وعلم الغيب، وحكمًا على شرع الله[1]؛ وقع الإنسان في المخالفة.

ثالثاً: العمل على استنباط مناهج التفكير المستقيم:

إن الإيمان بوجوب صيانة العقل حال نظره وتأمله، تبعث في نفوس أهل العلم والاستنباط الهمَّة لوضع القواعد السليمة، والمناهج المستقيمة للتفكير، مستقاة من الكتاب والسنَّة ومصادر الشريعة الإسلامية الأخرى، ونشر تلك القواعد وتضمينها في مناهج التربية التعليم في بلاد المسلمين.

إن تلك القواعد الشرعية تساعد -بإذن الله- في حماية المجتمع المسلم من الانحراف الفكري، إذ على ضوئها نضمن أن يكون فعل النفس الإنسانية وحركتها حين تأملها ونظرها، ومنتجات الفكر البشري وموضوعاته- منضبطة بالضوابط الشرعية، ملتزمةً بالحدود الآمنة للفكر، وعلى ضوئها – أيضاً – نستطيع أن نحكم على استقامة الأفكار وانحرافها، ونعرف مدى فائدة تلك الأفكار وضررها.

---

(١) انظر: د.ناصر العقل، دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص١٤٩، الطبعة الأولى –الرياض: دار أشبيليا ١٤١٨ هـ.

٣. كما يدعو القرآن الكريم إلى تكرار النظر مرة بعد أخرى في المشاهد الكونية، وفي الدلائل المعنوية، لأن تكرار النظر يؤدي إلى التثبت من الأمر أو الحدث، والوصول إلى الحقيقة.

يقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ سورة الملك، الآيات (٣-٤).

٤. اعتنى القرآن الكريم بالعقل وعُنِيَ به باعتباره مناطَ التكليفِ، وبما أن الفكر هو نتاج عمل العقل نجد عنايةَ القرآن الكريم بالعقل واضحةً.

فقد تكررت مادة فَكَرَ في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة، وجاءت بصيغة الفعل الماضي مرة واحدة في قوله سبحانه:[إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ]سورة المدثر، الآية (١٨)، أما في بقية المواضع فجاءت بصيغة الفعل المضارع تتفكرون، ويتفكرون ويتفكروا وتتفكروا .

فصيغة «تتفكرون» وردت في قوله سبحانه: [۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ]سورة البقرة، الآية (٢١٩).

وقوله سبحانه:[أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ] سورة البقرة، الآية (٢٦٦).

وقوله سبحانه:[قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ] سورة الأنعام، الآية (٥٠).

أما صيغة «يتفكرون» فهى الأكثر ذكراً، ووردت فى قوله سبحانه:[ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ] سورة آل عمران، الآية (١٩١).

وقوله سبحانه :[وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۡۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ] سورة الأعراف، الآية (١٧٦).

وقوله سبحانه:[إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ]سورة يونس، الآية (٢٤).

وقوله سبحانه:[يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ]سورة النحل، الآية (١١).

وقوله سبحانه:[بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ]سورة النحل، الآية (٤٤).

وقوله سبحانه:﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ ﴾ سورة النحل، الآية (٦٩).

وقوله سبحانه: [وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] سورة الروم، الآية (٢١).

وقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ سورة الزمر، الآية (٤٢).

وقوله سبحانه: [وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] سورة الجاثية، الآية (١٣).

وقوله سبحانه: [لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] سورة الحشر، الآية (٢١).

وقوله سبحانه: [وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] سورة الرعد، الآية (٣).

أما صيغة «يتفكروا» وردت في قوله سبحانه: [أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ] سورة الأعراف، الآية (١٨٤).

وقوله سبحانه: [أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ] سورة الروم، الآية (٨).

وأما صيغة «تتفكروا» ذُكِرَتْ في قوله تعالى: [۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ] سورة سبأ، الآية (٤٦).

ومن هنا ومن خلال الآيات الواردة السابقة والتي تؤكد على ضرورة إعمال العقل والتأكيد على مفهوم البيِّنة والحُجَّة والبرهان، كان من الضروري أن يتنبه الإنسان من خطر إهمال العقل أو عدم العناية به من خلال تَلقِّي الشبهات على مصراعيها أو الشهوات عن هوى نفس.

ولابن القيم[1] كلام نفيس في الشُّبهة، يؤكد فيه على وجوب دفع الشبهة وردها بالعلم، ومَكْمَن الخطر أن يتقبلها ولا يدفعها، يقول رحمه الله: «والشبهة وَارِد يرد على الْقلب يحول بَينه وَبَين انكشاف الْحق لَهُ، فَمَتَى بَاشر الْقلبُ حَقِيقَةَ الْعلم لم تُؤثر تِلْكَ الشُّبْهَة فِيهِ، بل يقوى عِلْمُه ويقينُه بردهَا وَمَعْرِفَة بُطْلَانهَا، وَمَتى لم يُبَاشر حَقِيقَةَ الْعلم بالْحَقِّ قلبُه قَدَحَتْ فِيهِ الشَّك بأول وهلة، فإن تداركها وإلا تَتَابَعَت على قلبه أمثالها حَتَّى يصير شاكا مُرْتَابا. وَالْقلب يتواردُهُ جيشان من الْبَاطِل: جَيش شهوات الغي وجيش شُبُهَات الْبَاطِل: فأيما قلب صغا إليها ورَكَنَ إليها تشربها وامتلأ بهَا فينضحُ لِسَانه وجوارحه بموجبها، فَإِن أُشربَ شُبُهَات الْبَاطِل تَفَجَّرَتْ على لِسَانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظنُّ الْجَاهِلُ أن ذَلِك لسعة علمه وَإِنَّمَا ذَلِك من عدم علمه ويقينه. وأورد في ثنايا كلامه، قول شيخ الاسلام، ابن تيمية- رحمه الله -بأن الشُّبَه لابد أن تكون مثل الزجاجة المصمتة تمر الشُّبُهَات بظاهرها، وَلَا تَسْتَقِر فِيهَا، فيراها بصفائه، ويدفعها

(١) ابن قيم الجوزية، (٦٩١ - ٧٥١ هـ)، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعي الدمشقيّ، أبو عبد الله، شمس الدين، من أركان الإصلاح الإسلامي، مولده ووفاته في دمشق، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، أَلَّفَ تصانيف كثيرة منها، (إعلام الموقعين)، (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية)، (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)، (كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء)، (مفتاح دار السعادة)، (مدارج السالكين). [الأعلام ج٦ ص٥٦].

بصلابته، وَإِلَّا فإذا أَشربتَ قَلْبك كل شُبْهَة تمرُّ عَلَيْهَا صَار مقرا للشبهات» (١).

إذاً علاج دفع الشبهة هو: المجاهدة وقمعها، والإقبال على الله تعالى، وملازمة الفكر الصافي.

وتكمن دور حماية الفكر من خلال:

أولاً: دور العلماء في حماية عقول الشباب:

ليعلم أننا نتعامل مع بشر، ومع شباب ومراهقين، في الخارج من شبابنا أكثر من مائة ألف مبتعث، قد طمعت فيهم الجهاتُ المشبوهة، والمنظماتُ الدولية، وربما بعضُ الطوائف والفرق، وغفل عنهم الرقيب، وغاب المثل الصالح، وتصارعت الأفكارُ أمامهم، وتساقطت الرموز، وقَصَفَتْ عقولَهم الأفكارُ الخارجية، مع لين العود، وحداثة السن، وقلة المحصول الشرعى، فماذا تنتظرون من هؤلاء؟

إن الأفكار عند هؤلاء الشباب تبدأ بشكل وساوس عابرة، ومع تجاهلنا لهم، بل وخوفهم منا تزداد تلك الوساوس والإرادات، لتصبح إرادات، ثم اعتقادات راسخة.

والحديث هنا ليس عن بعض الكَتَبَة المفتونين، من أرباب الشهوات، وطالبى الشهرة، الذين يُلبسون شهواتِهم ونزواتهم لباسَ الفكر والفلسفة، وإنما الحديث عن شباب نابهين صادقين مع أنفسهم، غير أن الحيرة تحيط بهم، وتُزعزع تَصوراتِهم، وغالبًا ما يتصفون بالذكاء والنباهة، والرغبةِ في اقتحام كل مجالٍ فكريٍّ يشرعُ أمامهم، فورود الإشكالات الفكرية والشبهات العقدية على أمثال

(١) انظر لابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج١ ص١٤٠، دار الكتب العلمية، بيروت.

هؤلاء أصبح أمرًا مألوفًا في هذا العصر، يتعرض له المؤمن المثقف، فضلاً عن الشاب الغِرّ السطحى، وإن من أقل واجبات العالم حمايةَ هذا الجيل من مخاطر تلك الأفكار المسمومة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه[١]: «**وأما المؤمنُ المحض فيعرض له الوسواس، فتعرض له الشكوك والشبهات وهو يدفعها عن قلبه، فإن هذا لا بد منه**»[٢].

وكيف يستطيع هؤلاء الأغرار أن يدفعوا شبهات الإلحاد عن أنفسهم، وفاقد الشيء لا يُعطيه! وكيف لهم أن يدفعوها بواسطة العلماء وهم يُخَوَّفون منهم، فيحال بينهم وبين الوصول إليهم !

لقد بيَّن ابن القيم – رحمه الله – أن الناس حينما تتخبطهم الشبهات والشكوك، وتُحيط بهم الطوائفُ المتعددة والمختلفة، البعيدة عن الهدى، ويغيبُ العالم الرباني الذي يَهدي الناسَ إلى مسالك الأنوار، ولا يجدون مَنْ يُنقذُهم منها، فإن عقولهم تضطرب بالشبهات، وتتأصل فيها، وخصوصًا الأذكياء.

يقول ابن القيم واصفًا واقعًا شبيهًا بما نتخوفه على شبابنا: «**فعظُمت البَلِّيَّةُ، واشتدت المصيبة، وصار أذكياء العالم زنادقةَ الناس، وأقربهم إلى التَّدَيُّن والإخلاص أهل البَلادة والبله**»[٣].

---

(١) ابن تَيْمِيَّة (٦٦١ – ٧٢٨ هـ)، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام، ولد في حران وتحول مع والده لدمشق، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، من مؤلفاته «مجموع الفتاوي الكبرى»، «اقتضاء الصراط المستقيم». [الأعلام ج١ ص١٤٤].

(٢) ابن تيمية، شرح العقيدة الأصفهانية، ج١ ص ١٦٧، ط مكتبة الرشد بالرياض، لعام ١٤١٥ هـ..

(٣) ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، ج١ ص ٢٥٣، دار المعرفة بيروت، ط ١٣٩٨ هـ.

هذه الكلمات من ابن القيم تُعد أمرًا عظيمًا يستحق التوقف عنده كثيرًا ؛ من أجل رسم منهجية في التعامل مع العقليات الذكية والمتميزة، التى قد تنحرف بسبب الآراء والأفكار الغريبة الضالة - إرهابيةً كانت أم إلحادية - في ظل غياب الرموز والأعلام الهادية.

إن تقصير العلماء والدعاة اليوم كبيرٌ في دفع تلك الشبهات عن الشباب، وقد فقد كثير من الشباب ثقتَهم في بعض العلماء؛ لأن بعضهم يمثل بحد ذاته مشكلة في طريقة تعامله مع هؤلاء الشباب، والبعض الآخر يمثل مشكلة أخرى أكبر بسبب الآثار المدمرة للصراع الداخلى الذي حصل ويحصل بينهم. إن حاجة الناس في عصرنا الحاضر للعلماء وطلبة العلم، و المعالجة الناجعة لتلك المواضيع المتصلة بتلك الإشكالات الجديدة - حاجةٌ ملحة وضرورية، وهى معالجة يجب أن تتسم بالحكمة، واتباع النص، وموافقة العقل السليم، وإشباع رغبة النفس باليقين والاطمئنان.

ومما نحمد الله عليه، أن دِيننا متينٌ، وأنه لا تعارض بينه وبين العقل أو العلم السليمين، بل ثبت أن ما يأتيان به إنما هو في حكم التابع للدِّين، الجاري مجراه؛ وإنما الخلل ينبع من أفكارِ وافدةٍ نشأتْ في بيئة يشيع فيها الإلحاد، أو فكر التكفير وشبهات حول الجهاد، فتغلغلت في عقول هشة، فوجب على العلماء وحراس العقيدة أن يبينوه ويفندوه للناس.

قال ابن تيمية: «ما عُلم بصريح العقل لا يُتَصَور أن يعارضه الشرع البتة؛ بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملتُ ذلك في عامة ما تَنازع الناسُ فيه، فوجدت ما خالف النصوصَ الصحيحة الصريحة شبهاتٍ

فاسدةً يُعلَم بالعقل بطلانها؛ بل يُعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع... والقول كلما كان أفسد في الشرع، كان أفسد في العقل، فإن الحق لا يتناقض»[١].

ثانياً: استغلال القنوات ووسائل التواصل الاجتماعي المتنوعة:

إن القنوات الفضائية المخالفة، والمواقع المعادية عقديًّا تشن حربًا لا هوادة فيها على الدين، وتواصل بثها للشبهات حول آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، وحول التفاسير، وتنشر ما عَلِقَ بالتراث من الغث والضعيف، والموضوع والخرافي، زاعمةً أن هذا هو ديننا، ومُورِدةً الشبهاتِ بوسائل حديثة، وتقنيات خطيرة.

فالشباب كما هو معلوم، وهم الأكثرية الغالبة في مجتمعنا اليوم، وهم في الوقت نفسه الشريحة الكبرى التى تدمن مطالعة الإنترنت ومشاهدة القنوات – صاروا بهذا ضحية للشبهات السياسية والدينية، ولاشك أن اهتزاز هذين الأمرين في الشريحة الشبابية، يعنى تغيرات جذرية في الخارطة الفكرية بشقيها السياسي والديني لا قدر الله.

هذا هو الواقع، وهذه هى ضريبة التقنية، التى لا يمكن مواجهتها بالمنع، أو سياسة التكتم، أو وضع الرأس في التراب، لا بد من مواجهة الفكر بمثله؛ لمقاومته وصده، ولا بد من الاستفادة من التقنية؛ لكبح شر الجانب السلبى فيها أو تخفيفه، ومما أذكر هنا كلاما لصاحب السمو الملكى الأمير، نايف بن عبد العزيز – رحمه الله – وهو يؤكد على ضرورة استخدام القنوات الفضائية ووسائل

(١) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج١ ص ١٤٧، طباعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط الثانية لعام ١٤١١هـ.

الاتصال و الإنترنت، وأن هذا البلد مستهدف في عقيدته، مستهدف في شبابه، ويجب على العلماء، وطلبة العلم والآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، والمربين الدفاعُ عن الأجيال القادمة باستخدام هذه الوسائل في الدعوة إلى الله والدفاع عن الدين(١).

فنحن في عصر تقدمت فيه التقنية بشكل هائل، وأصبحت الأفكار تشكل خطورة فائقة في التأثير والانتقال، حتى قيل: **إن الحرب الحقيقية في هذا العصر هى حرب معلوماتية فكرية بالدرجة الأولى**، فبواسطة الأفكار والمعلومات يمكن تدمير أقوى النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية، وتفكيك أشد القيم تماسكاً.

وتكمن خطورة حرب الأفكار في أنها تهدف إلى إخضاع الإنسان من خلال السيطرة على تفكيره، والوصول به إلى النتائج التى يريدها الخصم، دون الحاجة إلى استخدام القوة، وإنما من خلال بناء إدراكات وإيحاءات لديه توصله إلى مرحلة التسليم لإرادة الآخر، والقبول بها وكأنها الحل الأمثل، وهذا ما حصل، وللأسف، من بعض شبابنا ممن استُخْدِمُوا أداةً للتفجير، واعتنقوا الفكر التكفيرى الخارجى، ومبايعة زعيم الدولة الإسلامية المزعوم.

فمن خلال التجربة نعلم يقينًا أن الفكر لا يواجه إلا بالفكر، وحرب المعلومات لا تواجه إلا بالمثل، وعلى نفس المستوى، وبنفس الأساليب والأنساق.

إن مَنْ يأكل الطعام الفاسد أو المسمَّم فإنه سوف يموت، أو يتسمم بما أكل، وإذا كان هذا هو شأن الطعام الفاسد المسمم، فإن شأن الأفكار المسممة والفاسدة على العقول أعظم وأخطر.

---

(١) المقطع المرئي لصاحب السمو الملكي، الأمير نايف بن عبد العزيز – رحمه الله – في الـ you tube من خلال الرابط (https://www.youtube.com/watch?v=_svpSuziUKc).

والأفكار - مهما اعتقدنا أنها بسيطة أو ساذجة، وأننا في بلد التوحيد - إذا تُركَت دون نقد أو مواجهة، قد تكتسب قوة هائلة، يصعب بعد ذلك مواجهتها. وهنا لابد للعلماء من تكثيف جهودهم من خلال مشاركتهم في القنوات، وخصوصا قنوات التواصل الاجتماعى، ومواكبة العصر في تبليغ رسالة الدين، ولقد أخذ الله على العلماء العهد والميثاق بالبيان والتوضيح للناس، توضيح أمر الدين الصحيح، والذَّبِّ عنه وحراسته، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ سورة آل عمران، الآية (١٨٧).

ولا بد لهم من مواكبة الأحداث ومتابعة المستحدثات من الشبهات والرد عليها.

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية، حينما قام أحد الحائرين - من أمثال بعض شبابنا - بإرسال مجموعة من الأبيات الشعرية، يشكك بها في القدر، إلى مجلس شيخ الإسلام ابن تيمية، ومنها قوله:

إذا ما قَضى ربِّي بكُفْري بزَعْمِكُمْ ... ولَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي
دَعَاني وَسَدَّ البَابَ عَنِّي فَهَلْ إلَى ... دُخُولي سبيلٌ بَيِّنُوا لي قَضِيَّتي
قَضَى بضَلالِي ثُمَّ قَالَ ارْضَ بالقَضَا ... فَمَا أنَا رَاض بالَّذِي فِيهِ شِقْوَتي
فَهَلْ لي رضَا مَا لَيْسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي ... فَقَدْ حِرْتُ دُلُّوني عَلَى كَشْفِ حَيْرَتي

فما كان من شيخ الإسلام إلا أن نَظَمَ في ذلك المجلس قصيدةً يُردُ فيها بإحكام على قصيدته، وهى قصيدة طويلة فصَّل فيها الشيخ الردَّ، وأبان الأمر، ومنها:

سُؤَالُك يَا هَذَا سُؤَالُ مُعَانِدٍ ... مُخَاصِم رَبِّ العَرْش بَاري البَريَّةِ
وَهَذَا سُؤَالٌ خَاصَمَ المَلأَ العُلاَ ... قَدِيماً بِهِ إبْلِيسُ أَصْلُ البَلِيَّةِ

وَمَـنْ يَـكُ خَصْـماً لِلْمُهَـيْمِن يَـرْجِعَنْ ... عَلَـى أُمِّ رَأْس هَاويـاً في الحَفِـيرَةِ
وَأَصْـلُ ضَـلاَلِ الخَلْـقِ مِـنْ كُـلِّ فِرْقَـةٍ ... هُـوَ الخَـوْضُ في فِعْـلِ الإلَـهِ بِعلَّـةِ
فَقولُـكَ لِـمَ قَـدْ شَـاءَ مَثْـلُ سُـؤَالِ مَـنْ ... يَقُـولُ فَلِـمَ قَـدْ كَـانَ في الأَزَلِيـةَّ
وَذاكَ سُـؤَالٌ يُبْطِـلُ الْعَقْـلُ وَجْهَـه ... وَتَحْرِيمُـهُ قَـدْ جَـاءَ في كُـلِّ شِرْعَةِ(١)

وبغض النظر عن فاعلية الجواب من عدمه، إلا أن موجب الإيراد لهذا المثال هو تِبيان لسرعة استجابة العالم الرباني لمقتضيات الحال.

أفلا يجب علينا أن نتحلى بمثل تلك المبادرة السريعة؟ والاستجابة الفورية للمستجدات الحديثة، كما كان يتحلى بها العلماء الكبار، أمثال ابن تيمية وغيره، ومما ينبغى التأكيد عليه أن واجب الدولة تجاه هذا الأمر مُهم جدًّا، فإن **الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**، أو كما قال عثمان بن عفان – رضى الله عنه –: «لَمَا يَزَعُ السُّلْطَانُ النَّاسَ أَشَدُّ مِمَّا يَزَعُهُمُ الْقُرْآنُ »(٢)، وإن الحصانة الفكرية، بتمحيص الأفكار، وصيانةِ عقول الشباب، وفتح الحوار معهم - واجبٌ شرعى وعقلى، يُحتمه الشرع والواقع، وإن ترك تلك الأفكار الدخيلة والعقائد الفاسدة والتكفيرية تعبث بعقول الشباب، لَمهدِّدٌ بفساد الشباب، و إذا فسد الشباب فَمَنْ للوطن؟!.

إن من أهم واجبات ولى الأمر - وفقه الله - محاسبةَ القنوات الفضائية التى تَبُثُّ ما يُفسد العقائدَ أو الأخلاق والقيم، ويفكك المنظومة الفكرية، ويُخل بالأمن الفكري، أو على الأقل منعها من ممارسة نشاطها داخل الحدود وباسم الوطن

(١) ابن تيمية، القصيدة التائية في القدر، ج١، ص١٠٦، دار ابن خزيمة، الرياض، طباعة عام ١٤٢٤هـ.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد، من طريق ابن القاسم قال: حدثنا مالكٌ، أن عثمان بن عفان كان يقول (ما يزعُ الإمام أكثر مما يزعُ القرآن: أي من الناس)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ط وزارة الأوقاف بالمغرب، عام ١٣٨٧هـ، وقد قال فيه الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، أنَّ الحديث ثابت عن عثمان، الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

والوطنية، وكذلك محاسبة الصحف والمجلات والمطبوعات والمواقع والتغريدات التى فيها الاستهزاء على الدين في التوتير التى تنشر الإلحاد، أو تحارب الدين، أو تستخف بقيم مجتمع أرض الرسالةِ والوحى ودولة التوحيد؛ بل لابدَّ أن يكون للصحافة الوطنية دورها القوي والحاضر في صد تلك الانحرافات الفكرية الوافدة، لا أن تكون قناةً للترويج لها.

والعجيب أن المتابع للقنوات ووسائل التواصل الاجتماعي والذي يرى ويسمع تصريحات المسئولين، يجد أن كثيرًا من الأسماء الوهمية والمستعارة، التي تكتب في منتديات وساحات الحوار في الفيس بوك والتغريدات ضد ديننا أو بلادنا؛ إنما هي جهات تابعة لجهات ومؤسسات استخباراتية، ومنظمات وجماعات معروفة حاقدة على بلدنا، وقد كان لها - وللأسف - قدرة هائلة في تغيير أفكار كثير من القراء، وبالأخص الشباب، وتسريب معلومات موجهة من أجل أهداف خبيثة تمس الدين والوطن.

حفظ الله بلادنا وشبابنا من كيد الكائدين وحقد الحاقدين.

❊❊❊

الفصل الأول :
ما يجب اجتنابه لحماية الفكر

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أعراف الجاهلية كتعطيل الفكر وتقليد الأسلاف.

المبحث الثاني: الحذر من صحبة السوء والاغترار بهم.

المبحث الثالث: القول على الله بغير علم.

المبحث الرابع: الاغترار بما عليه أهل الكفر والانبهار به.

المبحث الأول:
أعراف الجاهلية كتعطيل الفكر وتقليد الأسلاف

لقد ذكر العقاد في كتابه «التفكير فريضة إسلامية»، أن مجمل أسباب تعطيل الفكر يعود إلى الالتزام بالعادات والتقاليد، والعرف الموروث عند الآباء والأجداد على غير هدى وبصيرة والتعصب لذلك والاقتداء بهم(١).

وتعريف التقليد في اللغة: مأخوذة من القِلادَة التي في العنق، وقُلِّدت المرأة فتقلدت هي، ومنه التقليد في الدين، وتقليدُ الولاةِ الأعمالَ وتقليد البدنة، أن يُعلّق في عنقها شيء لِيُعْلَم أنها هدي(٢).

والتقليد في الاصطلاح:

عرفه الجرجاني بأنه: «قبول قول الغير بلا حُجة ولا دليل»(٣).

ولقد ذمَّ الله- سبحانه وتعالى -الكفار في تقليدهم لآبائهم وأسلافهم فيما هم عليه من الكفر والشرك بالله سبحانه.

يقول الله عز وجل: [أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾] سورة الزخرف، الآيات (٢١-٢٣).

---

(١) انظر عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، ص ١٤٠، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

(٢) الجوهري، تاج اللغة ج٢ ص٥٢٧ ، دار العلم للملاين، بيروت، ط٤ عام ١٤٠٧هـ.

(٣) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات ج١ ص٦٤، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ عام ١٤٠٣ هـ.

في هذه الآيات يخبرنا سبحانه عن حال المشركين، وتعطيلهم للفكر من خلال تقليدهم لآبائهم، وأصحاب القول: هم المترفون من الرؤساء والكبراء ويقولون بل ويصرون على اتباعهم لملة ودين آبائهم (١).

ويقول الله عز وجل: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ] سورة لقمان، الآية (٢١).

وفي هذه الآية – أيضاً – يخبرنا سبحانه عن حال هؤلاء المشركين المعرضين عن توحيده، أنهم إذا دُعُوا إلى كتاب الله وإلى توحيده وشرعه يكون جوابهم الاتباع على ما اعتاد عليه الآباء، وكل ذلك من تزيين الشيطان لهم وإغوائهم إلى عذاب السعير، وذلك بسبب تعطيلهم للفكر، وعدم سماعهم وقبولهم للحق، وهؤلاء لم يكن لهم حُجة إلا اتِّباع الآباء الأقدمين(٢).

يقول سبحانه: [وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾] سورة الحج، الآية (٨).

وللقرطبي كلامٌ نفيسٌ في هذه الآية، فيقول: «[يُجَادِلُ] يخاصم [بِغَيْرِ عِلْمٍ] أي بغير حجة [وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ] أي: نَيِّرٌ بَيّن إلا الشيطان فيما يلقي إليهم.

وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية [وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ ﴿١٢١﴾] سورة الأنعام، الآية (١٢١)، وفي قوله سبحانه: [أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ]، فيتبعونه»(٣).

---

(١) انظر تفسير الطبري، الطبري، ج٢١ ص ٥٦٨، مؤسسة الرسالة، ط ١ عام ١٤٢٠ ه، ت/ أحمد شاكر.

(٢) ا انظر: تفسير الطبري، الطبري، ج١٨ ص ٥٦٨، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٦ ص ٣٤٧، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢ عام ١٤٢٠ هـ.

(٣) أبو عبد الله محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٤ ص٧٤، دار الكتب المصرية القاهرة، ط٢ عام ١٣٨٤هـ.

وفي قوله تعالى:[وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ] سورة البقرة، الآية (١٧٠).

يقول الرازي(١): «إن اللهَّ تعالى أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل اللهَّ من الدلائل الباهرةُ، فقالوا: لا نتبع ذلك، وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا، فَكأنهم عارضوا الدلالةَ بالتقليد، وأجاب اللهَّ تعالى عنهم، بقوله: [أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ]، وذكر تعالى هذه الآية عقِيب الزجر عن اتِّباع خطوات الشيطان، تنبيها على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان، وبين متابعة التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل، أو على ما يقوله الغير من غير دليل»(٢).

والكفار ومَنْ شاكلهم بسبب تقليدهم فهم لا يُحَكِّمُون لهم رأيا، ولا يُعْمِلُون لهم عقلا، ولا يُشْغِلُون لهم فكرا في البحث عن الحق والهدى، ولذلك تاهوا في أودية الجاهلية، فأهل الجاهلية جعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول الحق الذي جاء به المصطفىﷺ أنه لم يكن عليه أسلافهم، ولا عرفوه في آبائهم وأجدادهم.

والصورة تتكرر في بعض المذاهب والجماعات من تعطيل الفكر، وتقليد

---

(١) فخر الدين الرازي، (٥٤٤، ٦٠٦ هـ)، أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري، الأمام صاحب «التفسير»، وقد ألف في أصول الفقه كتابا سماه «المحصول» وهو كتاب عظيم في بابه يقع في ستة مجلدات ضخام، وقد ذكروا أنه كان يحفظ عن ظهر قلب كتابين، وهما «المستصفى» و«المعتمد». [سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٥٨٨]، [وفيات الأعيان ج٤ ص ٢٤٨].

(٢) أبو عبد الله محمد الرازي، التفسير الكبير، ج٥، ص ١٨٨، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٣، عام ١٤٢٠هـ.

الزعماء أو الرؤساء أو السادة دون تفكير وتحرير للعقل، وكلما رأى الإنسان ذلك يدرك نعمة الإسلام الذي هداه الله إليه ؛ فكم من البشر وقعوا في هذا المستنقع الخطير وهو التقليد دون النظر والتفكير، فالحمد لله أولاً وآخراً على نعمة الهداية، ولا عاصم في مثل هذه الأمور وهذه الأزمات التي تمر بالأمة؛ أفضلَ من التمسك بكتاب الله، سبحانه، والرجوع إليه وتدبر معانيه، فهو المُـخْرِج وهو العاصم من الفتن.

قوله سبحانه: [فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾] سورة الزخرف، الآية (٤٣).

ومصدر الإمساك لابد من القوة، قال تعالى: [يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾] سورة مريم، الآية (١٢).

ويتضح من هذا أن التقليد المذموم هو قبول قول بلا حُجة ولا دليل.

أما الأخذ بنصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح فليس بتقليد، بل هذا اتباع على بينة وعلم، فقد أثنى الله، عز وجل، على سيدنا يوسف، بقوله: [وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ] سورة يوسف، الآية (٣٨).

ومن أخذ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بنظر وتفكر فهذا ليس بتقليد بل اتباع.

وقال الله، عز وجل: [۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ] سورة سبأ، الآية (٤٦).

قال ابن عاشور[١]: «قَدَّمَ (مَثْنَىٰ) لأن الاستعانة أعون على الفهم، فيكون المراد دفع عوائق الوصول إلى الحق بالنظر الصحيح الذي لا يُغالِط فيه صاحبُ هوىً ولا شبهةٍ، ولا يخشى فيه الناظر تشنيعاً ولا سمعة، فإن الجماهير إذا اجتمعت لم يخل مجتمعهم من ذي هوى، وذي شبهة، وذي مكر وذي انتفاع، وهؤلاء بما يلازم نواياهم من الخبث ؛تصحبهم جُرأة لا تترك فيهم وازعاً عن الباطل، ولا صدًّا عن الاختلاق والتحريف للأقوال بعمد أو خطأٍ، ولا حياء يُهذِّبُ من حِدّتهم في الخصام والأذى، ثم يطيرون بالقالة وأعمال أهل السفالة، فللسلامة من هذه العوائق والتخلص من تلك البوائق الصادة عن طريق الحق، قيل هنا: (مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ)، فإن المرء إذا خلا بنفسه عند التأمل لم يرْضَ لها بغير النصح»[٢].

ففي الحديث عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالبٍ الوفاةُ دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» ، فَنَزَلَتْ: [مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ] سورة التوبة، الآية (١١٣)» [٣].

---

(١) ابن عاشور، (١٢٩٦ - ١٣٩٣ هـ)، محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، عُيِّن (عام ١٩٣٢) شيخا للإسلام مالكيا، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة أهمها «التحرير والتنوير». [الأعلام ج٦ ص١٧٤].

(٢) محمد بن الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢ ص ٢٣٢،الدار التونسية للنشر تونس عام١٩٨٤م

(٣) رواه البخاري رقم ٤٦٧٥، باب/ قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ، ج٦ ص٦٩.

كل ذلك عَصَبِيَّةٌ للأسلاف واتباعٌ للتقاليد والعادات الباطلة، وشاهدٌ على أن الكفار وأهل الريب إذا اجتمعوا على أمر باعتقادهم صحته وسلامته -وفيهم مَنْ يدعو إلى التصحيح واتِّباع المنهج السليم- فإن البقية يجتمعون على أن لا ينفر أحدٌ، أو يتراجع عن دينه إلى آخر لحظة من حياته، كما فعل كفار قريش بعم النبي ﷺ وما جرأهم على ذلك إلا التعصب للأسلاف.

ومن أعراف الجاهلية والتي جاء القرآن بذمها: الكبر والترفع عن الحق.

والكبر في اللغة: الكبر بالكسر: العظمة، وكذلك الكبرياء، وكبر الشيء أيضا: معظمه، ويقال: «ورثوا المجد كابرا عن كابر»، أي كبيرا عن كبير فِي الشرف والعز (١).

وفي الاصطلاح: هو اعتبار الإنسان نفسه خيراً من الآخر، كما أن الضعة هو أن يرى نفسه أقل من الآخر في مكان تَعرَّضَ فيه للتحقير وإضاعة الحق وأفضل من ذلك قول النبي ﷺ: «**الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٣).

ومما لا يخفى أن الكبر هو من أخلاق إبليس اللعين، ومن صفاته المذمومة، وذلك لأن الكبر من أعظم عوائق التفكير ؛ لأنه يجعل صاحبه المتكبر يأنف من اتباع الحق حتى وإن تبين له الصواب، يقول الله سبحانه: [ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾] سورة المدثر، الآيات (٢٣ – ٢٥).

---

(١) أحمد بن فارس الرازي، مقاييس اللغة، ج٥ ص١٥٣، دار الفكر ١٣٩٩هـ.

(٢) محمد بن علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج٢ ص١٣٥٨، مكتبة لبنان، ط١ عام ١٩٩٦ م.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٩١، المسند الصحيح المختصر، باب تحريم الكبر وبيانه، ج١ ص٩٣، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.

ففي هذه الآية يبين الله، سبحانه، حال هذا الرجل الذي استكبر وتعاظم عن الإيمان بالله، وهو الوليد بن المغيرة، وكيف أورد تلك الشبهة، عندما قال: «إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر»، وقال هذا الكلام عناداً واستكباراً، ولذا روي عن الوليد أنه قال عندما سمع من رسول الله ﷺ (حم السجدة) وخرج من عند الرسول عليه السلام: سمعت من محمد كلاما ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله هاهنا من أنه قول البشر؛ إنما ذكره على سبيل العناد والتمرد لا على سبيل الاعتقاد»(١).

ويقول سبحانه: [ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ] سورة غافر، الآية (٣٥).

وفي هذه الآية الكريمة كما يطبع الله على قلوب المسرفين الذين يجادلون في آيات اللهَّ بغير سلطان أتاهم ولا حجة، كذلك يطبع اللهَّ على كل قلب متكبر على اللهَّ أن يوحده، ويصدق برسله ومتعاظم عن اتباع الحق»(٢).

وفي قوله سبحانه: [وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩] سورة الجاثية، الآيات (٧- ٩).

و (الأفَّاك): هو الكذاب، و(الأثيم): المتبالغ في اقتراف الآثام، ومعنى

(١) انظر تفسير الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣٠ ص٧٠٧.

(٢) تفسير الطبري، ج٢٠ ص ٣٢٣، ط دار هجر، ١٤٢٢هـ.

(يصر): يقبل على كفره ويقيم عليه، وأصله من إصرار الحمار على العانة، وهو أن ينحني عليها صارّا أذنيه، (مُستكبرا) عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق، مزدريا لها معجبا بما عنده، وقيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن، والآية عامة في كل ما كان مضارا لدين الله(١).

ويقول سبحانه: [وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] سورة لقمان، الآية (٧).

وفي قوله تعالى: [وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا]، أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تُليت عليه الآيات القرآنية ولىّ عنها وأعرض وأدبر وتصام، وما به من صمم، كأنه ما يسمعها ؛ لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرب له فيها (٢).

وفسر ابن عاشور قوله: «[مُسْتَكْبِرًا] حال، أي: هو إعراض استكبار لا إعراض تفريط في الخير فحسب، وشُبه في ذلك بالذي لا يسمع الآيات التي تتلى عليه، ووجه الشبه هو عدم التأثر، ولو تأثراً يعقبه إعراض كتأثر الوليد بن المغيرة»(٣).

ويقول سبحانه: [وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا] سورة نوح، الآية (٧).

---

(١) انظر تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، ج٤ ص٢٨٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٦ ص٣٣٠.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٢١ ص١٤١.

ففي قوله تعالى [وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا]، أي وتكبروا فتعاظموا عن الإذعان للحق، وقبول النصيحة (١).

وقال سبحانه: [وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ] سورة النمل، الآية (١٤).

ومعنى ظلماً وعلوا أي: أيُّ ظلم مَنْ استيقن أنها آيات بينات من عند الله تعالى ثم كابر بتسميتها سحراً بينا، و العلو هو: التكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله: ﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ سورة المؤمنون، الآية (٤٦)، (٢).

ومن خلال الآيات التي مرت معنا، يتبين لنا أن الكبر مما يجب اجتنابه لحماية الفكر، فالكبر إذا استولى على الإنسان فإنه يمنعه من التفكر والنظر، ويكون عائقاً كبيراً أمام النظر في الأدلة والبراهين والحجج، ويرفضها ولا يقبلها بحجة أن قوله هو الصواب والصحيح.

ولذا فسر النبي ﷺ الكبر بأنه بطُر الحقِ و غمطُ الناسِ، والواجب على الإنسان الحذر من أن تكون هذه الصفة داخلة في قلبه أو شيء منها.

عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(٣).

ومن تعطيل الفكر التحزب المقيت للرأي أو للمذهب، ونصوص القرآن

---

(١) انظر تفسير الطبري، الطبري، ج٢٣ ص٢٩٢.

(٢) انظر مفاتيح الغيب، الرازي، ج٢٤ ص١٥٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، باب/ تحريم الكبر وبيانه، ج١ ص٩٣، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

الكريم تأمرنا بالتزام التوسط والاعتدال وعدم الغلو، ومن الغلو التعصب في الرأي وعدم قبول قول الآخر.

فالتعصُّب: المحاماة والمدافعة، وتعصبنا له ومعه: نصرناه.

و تَعصَّب: (تقنع بالشيء ورضي به، كاعتصب به) (١).

وفي الاصطلاح: هو عدم قبول الحق عند ظهور الدليل بناء على ميل إلى جانب(٢).

يقول الله، عز وجل: [وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ] سورة البقرة، الآية (١٤٣).

ففي هذه الآية: لما كان الوسط مجانبا للغلو والتقصير كان محمودا، وهذه الأمة لم تغل غلو النصارى في أنبيائهم، ولا قصَّروا تقصير اليهود في أنبيائهم، و في هذه الآية – أيضاً – ثناء على المسلمين بأن الله قد ادخر لهم الفضل، وجعلهم وسطاً بما هيأ لهم من أسبابه في بيان الشريعة بياناً جعل أذهان أتباعها سالمة من أن تُروج عليهم الضلالات التي راجت على الأمم(٣).

وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى

(١) محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس ج٣ ص ٣٨٢، ط دار الهداية.

(٢) محمد بن علي التهانوني – كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،ج ١ ص ٤٨٥، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط ١ عام ١٩٩٦ م.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٣ ص٣٨٢، وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢ ص١٤.

ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ سورة النساء، الآية (١٧١).

وقد نُهى عن الغلو، والغلو: التجاوز في الحد، مثل غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه ربا ؛ فالإفراط والتقصير كله سيئةٌ وكفرٌ(١).

وأما التحزُّب، فقد مدحه الله في موضعين من كتابه، وبقية المواضع جاءت في معرض الذم. أما الممدوح فقد ورد في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ سورة المائدة، الآيات (٥٥ – ٥٦).

فقد بين الله، عز وجل، أن المؤمنين الصادقين في إيمانهم، المخلصين في عبادتهم، المناصرين لله ولرسوله، ولعباده المؤمنين، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لخلقه ؛ هم الحزب المضافون إلى الله الذين يستحقون الغلبة والنصرة على أعدائهم (٢).

وقال سبحانه: [لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) انظر تفسير القرطبي، ج٦ ص٢٠.

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ج١ ص ٢٣٦، مؤسسة الرسالة ط ١٤٢٠.

كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ] سورة المجادلة، الآية (٢٢).

ومعنى الآية: كمالُ الإيمان الحق، الإيمانُ بالله واليوم الآخر، ويوالون ويحبون من أحب الله ورسوله، ويبغضون من أبغض الله ورسوله - ولو كانوا أقرب الناس إليهم - فإن فعلوا ذلك فهم الذين غرس الله الإيمان في قلوبهم، وثبته فيها حيث لا تؤثر فيها الشكوك، ولا الشُّبَه. وقواهم بمدده ووهبهم الحياة الطيبة في الدنيا، وهو أن الله يُحِل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية[(١)].

وهم بلا شك من حزب الله المفلحين.

و في قوله تعالى: [أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ] و إضافتهم إلى اللهَّ سبحانه هنا: تشريف لهم عظيم وتكريم، وهم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، الكاملون في الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفلاح الكامل [(٢)].

قال ابن القيم: «الفرقة الناجية حزب الرسول وأنصاره، وبُنك الإسلام، وعصابة الإيمان الذين لم يتحيزوا إلى فئة غير الرسول ﷺ ولم يذهبوا إلى مقالة غير ما دلت عليه سنته، ولم ينتسبوا إلى غيره بوجه من الوجوه»[(٣)].

---

(١) انظر تفسير السعدي، ج١ ص٨٤٨.

(٢) انظر فتح القدير، الشوكاني، ج٥ ص٢٣١، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب دمشق، ط ١ عام ١٤١٤ هـ.

(٣) ابن القيم الجوزية، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، ج٤ ص ١٥٤٩، دار العاصمة الرياض، ط ١ عام ١٤٠٨ هـ.

بُنك: أصل الشيء وخالصه [١].

خلاصة القول: فَمَنْ تَحزَّب على منهج الله ومنهج رسوله ﷺ سَعِدَ في الدنيا والآخرة، وضَمِنَ فكره من التعصب المقيت للأفراد والجماعات والأحزاب.

ومن المؤسف أنك تجد أناساً وفئة بلغت من التعصب مداه، لهم أراء غريبة وعجيبة، ومع ذلك يستسلم عقلُه ويتقبلها دون تمحيص ونظر، وتجد هذا الشخص ربما تقلد أعلى الشهادات، وأرقى المناصب، ومع ذلك في أمور الدين لم يحرر عقله، ولم يجعل له نصيب تفكير فيما يقوم به ويفعل! وسَلَّم عقله تسليماً إلى ذلك القائد أو المنظر أو العالم دون النظر والتأمل في الأقوال.

وأخطر شيء على الفكر هو التعصب المقيت للرأي، والترفع والكبر عن قبول الحق ورده، وتقليد الأسلاف، فإذا اجتمعت؛ أودت بحياة الإنسان وأهلكته، ولذا يكون عاقبتهم كما قال الله، عز وجل: [وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠] سورة الأحزاب، الآية (٦٧).

والنتيجة كانت في قوله تعالى: [رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا] سورة الأحزاب، رقم الآية (٦٨).

فلو تأملوا في هذه الآية لارتدعوا وحاسبوا أنفسهم، لكن إنما هو التعصب والتحزب للمذهب أو الجماعة، والتكبر عن قبول الحق، وهنا يكمن ويجب اجتناب الفكر من هذه الأعراف، أعراف الجاهلية ومن شاكلهم.

وإن المتأمل في الأحداث المأساوية التي ظهرت في بعض بلاد المسلمين يجد أن من أبرز أسبابها: الحزبية والتعصب لأحد بعينه، والكبر في عدم قبول الرأي

(١) ابن منظور - لسان العرب، ج١٠ ص٤٠٣ ، ط دار صادر بيروت، ط الثالثة ١٤١٤هـ.

الآخر، فقد رأى أولئك أن الصواب مع حزبهم، وأن ذلك الرجل هو مَنْ يجب أن يجتمع الناس تحت رايته، وأما غيرهم فهم ضُلّالٌ، أو فُسّاقٌ، أو كُفّارٌ حسب تصنيفه الذي مُنِي به، ولو كان عاقلاً منصفاً لأدرك أن أراء الرجال كثيراً ما تقود إلى الهلاك، فليست مرجعا ولا حجة، وإنما الذي تبرأ به الذمة الاستمساك بالنص الشرعي بما فهمه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

❊❊❊

المبحث الثاني:
الحذرُ من صحبةِ السوءِ والاغترارِ بهم

الإنسان مَدَنِيّ بطبعه لا يستطيع العيش منفردا منعزلا، فهذه مقولة مشهورة عند علماء الاجتماع وأحيانا تنسب إلى الحكماء، بقولهم «إن الإنسان بطبعه مدني»، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش وحده في عزلة عن المجتمع، وجزاء مَنْ يفعل ذلك أنه سيصاب بأمراض نفسية واجتماعية، ولو تأملنا في واقع العبادات لوجدنا فيها تجمعاً واجتماعاً، فالصلاة يجتمع الناس في المسجد خمس مرات في اليوم، ويوم الجمعة الاجتماع الأسبوعي، وفي موسم الحج يجتمعون الاجتماع الأكبر، تجمعهم رابطة الإسلام والأخوة في لباس واحد، لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى، ورغب الإسلام المخالطة ورتب عليها الجزاء.

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال ﷺ: «**المؤمنُ الَّذي يخالطُ النَّاسَ ويصبرُ على أذاهم أعظمُ أجرًا منَ المؤمنِ الَّذي لاَ يخالطُ النَّاسَ ولاَ يصبرُ على أذاهم**»(١).

وقَدْ عُني الإسلام أشد العناية بالصحبة الصالحة ؛لما لها مِنْ كبير الأثر والصلاح في الدنيا والآخرة، ولما لها أيضا من عظيم التوجيه في العقل والفكر، فكل قرين بالمقارن يقتدي.

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٠٣٢، باب الصبر على البلاء، ج٢ ص ١٣٣٨، دار إحياء الكتب العربية، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، وأخرجه أحمد في مسنده رقم ٥٠٢٢، ج٩ ص ٦٤، وحكم ناصر الدين الألباني عليه بالصحة في السلسلة الصحيحة ج٢ ص ٦١٤، مكتبة المعارف للنشر بالرياض، عام ١٤١٦هـ.

وصدقًا قال طرفة بن العبد:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي
فإن كان ذا شرٍّ فجانبه سرعةً وإن كان ذا خيرٍ فقارنه تهتدي (١)

يقول الله عز وجل: [ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ] سورة الزخرف، الآية (٦٧).

فكل صداقة وصحبة لغير اللهَّ فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان للهَّ، عز وجل، وسبحان الله، جميع المحبات تنقطع يوم القيامة ولا تبقى إلا محبة المتقين الصالحين، وهم المتصادقون في الله عز وجل؛ لما يرونه من ثواب التحابِّ في الله عز وجل، وأن تحذير النّاس من قرين السوء وذم الشياطين وأصحاب السوء ليعافهم النّاسُ، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (٢).

ويقول سبحانه: [وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا] سورة الكهف، الآية (٢٨) ، **قال ابن كثير** (٣): «أي: اجلس مع

(١) عبدالملك بن محمد الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ج١، ص٥٢-٥٣، ط٢ عام ١٤٠١هـ، الدار العربية للكتاب، ت/ عبدالفتاح محمد الحلو.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٧ ص٢٣٧، وانظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الألوسي، ج١٣ ص ٩٧، ط الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ، وانظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٢٥ ص٢٣١.

(٣) ابن كثير(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)، إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقيّ، أبو الفداء، عماد الدين، حافظ مؤرخ فقيه، ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة ٧٠٦ هـ ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق، من كتبه (البداية والنهاية)، (شرح صحيح البخاري) لم يكمله، و (طبقات الفقهاء الشافعيين)، (تفسير القرآن الكريم) و (الاجتهاد في طلب الجهاد). [الأعلام ج١ ص٣٢٠].

الذين يذكرون اللهَّ ويهلِلونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشيا من عباد اللهَّ، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء»(١).

من هذا المنطلق ندرك تماماً أهمية الصحبة الصالحة، وخطر الرفقة السيئة على الفكر، وهي من الأمور التي يجب اجتنابها لحماية الفكر.

وفي هذا المبحث نُبَيِّن مفهوم الصحبة وأثرها على الفكر.

تعريف الصحبة لغة: صحب: صَحِبَه يَصْحَبُه صُحْبة، بِالضَّمِّ، وصَحابة، بِالْفَتْحِ، وَصَاحَبَهُ: عَاشَرَهُ. والصَّحْب: جَمْعُ الصَّاحِبِ مِثْلِ رَاكِبٍ وَرَكْبٍ. والأَصْحاب: جَمَاعَةُ الصَّحْب، وَالصَّاحِبُ: المُعاشر (٢).

والصاحب مُشتق من الصُّحبَة، وهي وإن كانت تعم القليل والكثير لكنّ العرف خصصها (لمن كثرت ملازمته وطالت صحبته) (٣).

الصحبة: تفيد انتفاع أحد الصاحبين بالآخر؛ ولهذا يستعمل في الآدميين، خاصة فيقال: صحب زيدٌ عَمْرا وصحبه عمرو، ولا يقال: صحب النجمُ النجمَ أو الكونُ الكونَ.

تعريف الصحبة اصطلاحاً: قيل إنها «علاقة بين شخصين أو مجموعة تقوم على توفر مجموعة من الصفات عند جميع الأطراف، (كالمحبة والصدق، والأمانة،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٥ ص١٥٢.

(٢) لسان العرب ج١ ص ٥١٩، القاموس المحيط ج١ ص ١٠٤، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر، بيروت، ط الثامنة ١٤٢٦هـ.

(٣) أيوب بن موسى الكفوي، الكليات ج١ ص ٥٥٨، مؤسسة الرسالة، ت/ عدنان درويش ومحمد المصري.

والإخلاص، والإيثار، والوفاء) وصحبة الأشرار تقوم على الضد من ذلك»[١].

الآيات الواردة في الصحبة: لفظة الصحبة ومشتقاتها ذُكرت في القرآن الكريم (٦٩ مرة) بصيغ متنوعة، فمرة بصيغة الجمع، ومرة بصيغة المفرد، ومرة بصيغة المضارع، منها المكي قرابة (٤٩) مرة، ومنها المدني قرابة (٢٠)مرة، وسبب ذلك أن مرحلة المكي مرحلة إعداد لجيل مؤمن وجيل كان الأغلب منه من الشباب؛ ولذلك كانت الآيات أكثر، أما في مرحلة المدني فجاءت الآيات أقل، وذلك لتأكيد معاني الصحبة والتذكير بها وتنميتها لما كان في العهد المكي[٢].

خطر الصحبة على الفكر:

إن للصحبة أثراً كبيراً في توجيه سلوك الفرد نحو الخير أو الشر ؛ وذلك لأن الإنسان لا يتأثر إلا بمن يصاحبه، ولذا بين ﷺ أن الإنسان يتأثر بمن يصاحبه ثم وجه عليه الصلاة والسلام إلى ضرورة اختيار الصاحب.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» [٣].

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ**

---

(١) أسماء وجيه أبو صفية، الصحبة في ضوء القرآن (دراسة موضوعية) ص٢١، رسالة ماجستير مقدمة لكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة لعام ١٤٣٢هـ، ((غير مطبوعة)).

(٢) انظر الصحبة في ضوء القرآن ص١٩.

(٣) رواه أبو داود في سننه برقم ٤٨٣٣، باب/ من يؤمر أن يجالس، ج٤ص٢٥٩، والترمذي في جامعه برقم ٢٣٧٨، ج٤ ص ٥٨٩، وحكم الألباني عليه بصحته في السلسلة الصحيحة ج٢ ص ٥٩٧.

مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»(١).

ومعنى يُحْذِيَكَ: من الإحذاء أي: الإعطاء، و نَافِخُ الْكِيرِ: الكير هي الآلة التي ينفخ فيها الحداد فيخرج منها الريح الخبيثة أو الكريهة، المقصود منه النهي عن مجالسة من تؤذي مجالسته في دين أو دنيا والترغيب في مجالسة مَنْ تنفع مجالسته فيهما (٢).

وفي حديث آخر نجد صلوات الله وسلامه عليه لا يكتفي بأسلوب التمثيل للترغيب في مصاحبة الصالحين والتنفير عن مصاحبة أهل السوء، بل يدعو صراحة إلى مصاحبة أهل الصلاح وأهل الإيمان الذين يراقبون الله عز وجل.

روى أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**»(٣).

وخطر صحبة السوء على الفكر عظيم ولو تأملنا السنة النبوية لوجدنا أكثر الأمثلة على ذلك، قرناء السوء لعم النبي ﷺ أبي طالب، كما ورد في الحديث، «أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٥٥٣٤، باب / المسك، ج٧ ص٩٦، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٤٦، باب / استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة...، ج٤ ص٢٠٢٥٦.

(٢) انظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ج ١ ص ١٨١، دار المعرفة – بيروت عام ١٣٧٩ م، وانظر فيض القدير، المناوي، ج ٣ ص ٤، ط ١ عام ١٣٥٦ ه، المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

(٣) رواه أبو داود في سننه برقم ٤٨٣٢، باب/ من يؤمر أن يجالس، ج٤ ص ٢٥٩، المكتبة العصرية بصيدا بيروت، ت/ محمد محي الدين عبد الحميد، والترمذي في جامعه برقم ٢٣٩٥، باب/ ما جاء في صحبة المؤمن، ج٤ ص ٦٠٠، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ط٢ عام ١٣٩٥ ه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم ٧٣٤١، ج٢ ص ١٢٢٦، المكتب الإسلامي للنشر.

رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ :«**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله**» فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَا وَالله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، فأنزل الله تعالى فيه:[مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ] سورة التوبة، الآية (١١٣)» [(١)]، فها هم قرناء السوء يمنعون أبا طالب من النطق بكلمة التوحيد، ولو قالها لكان من أهلها، فهي دعوة للتأمل، أن الفاجر لا ييأس ولا يتعب في تحقيق مشروعه وهدفه الذي يَنْشُدُهُ، بخلاف بعض الأخيار ما إن تواجهه عقبات في مسيرته الدعوية إلا وتجده يتململ وييأس ولربما ترك مشروعه، وفي هذا يقول سيدنا عمر- رضي الله عنه-: «عجبت من جَلَدِ الفاجرِ وعَجْزِ الثقةِ»[(٢)].

هذه الأمثلة تتكرر الآن بصورة مطورة للصداقة والصحبة من خلال وسائل الاتصال، والمواقع الالكترونية التي تقوم على التعرف على الشباب، ومَنْ ثَّم الانخراط في شباكهم الملغومة، فالبداية من صديق وتعارف في هذه الوسائل، يتطور الأمر إلى أن يصل عند بعض الناشئة إلى فكر الإلحاد، أو التشكيك في النصوص المسلَّم بها والمعلومة من الدين بالضرورة، أو التأثر بفكر التكفير

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ١٣٦٠، باب / إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، ج٢ ص٩٥، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٤، باب / أول الإيمان قول لا إله إلا الله، ج١ ص٥٤.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما ذكره ابن الجوزي في كتابه «مناقب عمر بن الخطاب»، ص ١١٧.

والخروج عن ملة الإسلامَ، ولذا يأتي التأكيد من الشارع الحكيم على ضرورة الابتعاد وعدم الجلوس مع أولئك النفر والصحبة الذين يخوضون في آيات الله.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ سورة الأنعام، الآية (٦٨).

و هذه الآية ترشدنا وتدلنا على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية(١).

ويقول الله عز وجل، محذراً من المساس أو القرب من أولئك الظالمين لأنفسهم بالمعاصي والشرك، [وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ] سورة هود، الآية (١١٣).

إنَّ الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم والفحش وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم، ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب والخصال(٢).

ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ سورة الأنعام، الآية (٧١).

---

(١) انظر فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ج١ ص ٦٠٧، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى عام ١٤١٤ هـ.

(٢) انظر مفاتيح الغيب، الرازي، ج١٨ ص٥٦.

قال الطبري[١]: «وهذا مثل ضربه اللهَّ تعالى لمن كفر باللهَّ بعد إيمانه، فاتبع الشياطين من أهل الشرك باللهَّ، وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه المقيمون على الدين الحق يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق، وعنه زائل، يقولون له: ائتنا، فَكن معنا على استقامة وهدى، وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان»[٢].

فيجب على الإنسان أن يبتعد عن الكفار والفساق وأهل البدع ؛ لأن بالجلوس معهم لا يسلم الإنسان من خطر شبهاتهم، وأيضاً لا يسلم قلبه من خلال إظهار مودتهم والتظاهر بمجاملتهم فهو مما يورث القلبَ المرضَ والنفاق، وإن كان يكرههم بقلبه، ومن أعظم الأسباب التي تؤدي إلى حفظ الأجيال الناشئة من الفكر المنحرف: حمايتهم مما يخرم الدين، ويخدش المروءة من المعاصي بشتى أنواعها واللهو المـُحَرَّم، وفاحش القول، والسبّ والشتم، وغير ذلك من أسباب غضب الله عز وجل، لأن المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد[٣].

و في هذا يجب أن يتجنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والباطل، والغناء

---

(١) محمد بن جرير الطبري، (٢٢٥ – ٣١٠ هـ)، هو الإمام البارع في أنواع العلوم، أبو جعفر، نسبته إلى طبرستان، له كتاب التاريخ المشهور وكتاب التفسير لم يصنف أحد مثله، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، قيل أنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة، زاره خلق كثير من أهل الدرس والأدب ورثاه ابن الأعرابي وابن دريد عند وفاته. (وفيات الأعيان ج٤ ص ١٩٢).

(٢) الطبري، جامع البيان، ج٩ ص٣٢٦.

(٣) انظر: حماية الناشئة من الانحراف، بندر العبدلي، ص٢٢، دار الوطن للنشر بالرياض

وسماع الفحش والبدع، ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكِبَرِ، وعزَّ على وليِّه استنقاذه منه(١).

أقول هذه الأمور لا يمكن أن توجد إلا عند رفقاء السوء وأهل الفسق والمجون.

وهنا يتبين لنا أيضاً خطورة وسائل الإعلام التي تقوم على التشكيك في الذات الإلهية أو فكر الديانات الأخرى، أو فكر التكفير، فإذا لم تكن هناك مراقبة على تلك البرامج والتوجيه والإرشاد من خلال الآباء والمربين، وأصحاب الفكر، والكُتَّابِ، وخطباء الجوامع ؛ وإلا نتج عن ذلك شباب أصحاب فكر منحرف سهل التأثر فيهم، مما يضر بالأمة والمجتمع.

يقول سبحانه: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ﴾ سورة البقرة، الآية (١٠٥).

فهؤلاء الكفار والمشركون لا يتمنون لهذه الأمة أي خير ؛ لذا هم يحاربوننا بشتى الوسائل والأساليب، وهم إلى الآن يركزون على أفكار الشباب وكيفية صرفهم عن دينهم إلى أشخاص خاوية عقولهم دون تفكير ونظر ؛وإنما تتبع وتقلُّد لمظاهر من يحاكونهم من أقرناهم، أهل السوء أو لمظاهر الغرب.

قال سبحانه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ

(١) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم الجوزية، ج١ ص٢٠٤، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى عام ١٣٩١ ه، ت/ عبد القادر الأرناؤوط.

﴿وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٩﴾ سورة البقرة، الآية (١٠٩).

قال رشيد رضا[١]: «فهو بيان لما يضمرونه وما تُكِنُّه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق، وأن وراءها السعادة في الدارين، ولكنهم شَقَّ عليهم أن يتبعوهم، فتمنوا أن يُحْرَمُوا هذه النعمة ويرجعوا كفارا كما كانوا، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة، ولو لم تكن ضارة به، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه؟! كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل، وفائدة هذا التنبيه أو التنبيهات أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكِتاب أحيانا من إلقاء الشُّبَه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه ؛ إنما هو مكر السوء، يبعث عليه الحسد لا النصح الذي يبعث عليه الاعتقاد»[٢].

وأعظم صحبة يحرص عليها الإنسان هي صحبة أهل العلم، أصحاب الفكر السليم الراسخين في العلم، فبهم يتنور الإنسان في فكره ويرقى في تعاملاته وأخلاقه.

❊❊❊

(١) محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بَهاء الدين بن ملّا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتّاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في القلمون وتعلم فيها وفي طرابلس، وتنسك ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، دفن بالقاهرة، أشهر آثاره مجلة (المنار)، و (تفسير القرآن الكريم). [الأعلام ج٦ ص١٢٦].

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ج١ ص٣٤٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٩٠م.

المبحث الثالث:

القول على الله بغير علم

مما يجب اجتنابه لحماية الفكر من الانحراف والذي أكد القرآن الكريم عليه، القول على الله بغير الحق، ولذا حرَّم الله، عز وجل على العبد أن يقول عليه، أو على رسوله ﷺ ما ليس له به علم، أو يتكلم، أو يفتي في دين الله سبحانه، بغير علم.

قال ابن القيم: «وقد حرَّم الله سبحانه، القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة الأعراف، الآية (٣٣).

وترتيب المحرمات في هذه الآية على النحو الآتي:

١. بدأ بأسهلها وهو الفواحش.

٢. ثم ثَنَّى بما هو أشد تحريما منها وهو الإثم والظلم.

٣. ثم ثَلَّث بما هو أعظم تحريما منها وهو الشرك بالله سبحانه.

٤. ثم ربَّع بما هو أشد تحريما من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم.

وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه»[1].

---

(١) انظر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم الجوزية، ج١ ص٣١، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٤١١هـ، ت/ محمد عبدالسلام ابراهيم.

و في الآية السابقة، التحريم عام في القول في الدين من غير يقين[١].

وقال محمد رشيد رضا: «ويأمركم ألا تقولوا على الله في دينه الذي دان به عبادُه ما لا تعلمون علم اليقين أن الله شرعه لهم من عقائد وأوراد وأعمال تعبدية وشعائر دينية ؛ أو تحليل ما الأصل فيه التحريم، وتحريم ما الأصل فيه الإباحة، ولا يثبت شيء من ذلك بالرأي والاجتهاد من قياس واستحسان ؛ لأنهما ظن لا علم، فالقول على الله بغير علم اعتداء على حق الربوبية بالتشريع، وهو شرك صريح، وهذا أقبح ما يأمر به الشيطان، فإنه الأصل في إفساد العقائد وتحريف الشرائع، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير»[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ سورة النحل، الآيات (١١٦ – ١١٧).

ويدخل في هذا كل مَنْ ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلَّل شيئا مما حرَّم اللهَّ، أو حرَّم شيئا مما أباح اللهَّ، بمجرد رأيه وتشَهِّيه دون علم[٣].

ويدخل في القول على الله بغير علم التحليل والتحريم بالرأي المجرد بلا دليل ولا برهان من الله ورسوله، وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن مَنْ اتخذه معبودا من دون الله، يقربه إلى الله ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كما تَكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل

---

(١) انظر معالم التنزيل، البغوي، ج٢ ص١٨٩، ط دار إحياء التراث، بيروت ١٤٢٠هـ.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٢ ص٦٨.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٤ ص٦٠٩.

على الله بلا علم، ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجبا لدخول النار ؛ لأنه متضمن للقول على الله بلا علم، كصريح الكذب عليه.

وقول الله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ سورة الحج، الآيات (٣ – ٤).

ففي هذه الآية الذَّم لمَنْ يجادل في الله بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى [١].

و قوله تعالى: [وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾] سورة الحج، الآيات (٨ – ١٠).

في هذه الآية إشارة إلى أهل الجدل من الفلاسفة، فإنهم يجادلون في ذات الله تعالى وصفاته عزّ وجلّ، كذلك عند التحقيق لأنهم لا يعتبرون كلام الرسل – عليهم الصلاة والسلام –ولا الكتب المنزلة من السماء، وأكثر علومهم مشوبة بآفة الوهم» [٢].

وهذه بضاعة أهل الفكر المنحرف لا يستندون إلى الكتاب والسنة، ولا يعترفون بها بل أساسهم عقولهم التي زينت لهم الشهوات والشبهات، فَتَقَوّلوا على الله بغير علم فضلوا وأضلوا.

---

(١) المرجع السابق، ج٥ ص٣٩٩.

(٢) انظر روح المعاني، الألوسي، ج١١ ص١١١، ط١ عام ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية – بيروت، ت / علي عبد الباري عطية.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ سورة البقرة، الآيات (١٦٨ – ١٦٩).

ويقول تعالى: [... فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾] سورة الأنعام، الآية (١٤٤). وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ سورة النحل، الآية (١١٦).

ومن خلال هذه الآيات يتبين لنا أن القول على الله بغير علم،أو التكلُّم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله من أسباب الانحراف الفكري التي بيَّنها الله في كتابه وحذَّر منها، وبه تتضح أهمية اجتناب هذا السبب الخطير والتحذير منه، بل إن القول على الله بغير علم من أعظم الضلال ولذا عَنْوَنَ له الشيخ، محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – (١) في كتابه مسائل الجاهلية بقوله «قاعدة الضلال: القول على الله بغير علم» (٢).

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب: هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، ولد عام (١١١٥ هـ)، في بلدة العيينة، تعلم القرآن وحفظه قرأ على أبيه في الفقه، وتوجه إلى الدرعية ليلتقي مع الإمام محمد بن سعود، و تم اللقاء التاريخي وحصلت البيعة المباركة على ذلك، من مؤلفات الشيخ (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، وفي عام (١٢٠٦هـ) توفي الشيخ رحمه الله.[انظر كتاب حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحقيقة دعوته ص ٢٢، للدكتور سليمان بن عبدالرحمن الحقيل، ط الأولى ١٩٩٩م].

(٢) الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، شرح مسائل الجاهلية، لمحمد بن عبدالوهاب، ص ٢٨٥، دار العاصمة للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

وقد جاءت السنة النبوية مُحذِّرة من التكلُّم، أو القول على الله بغير حق، ومِنْ ذلك:

١. عن أبي هريرة –رضي الله عنه –قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أُفْتِيَ بِفُتْيَا غَيْرَ ثَبَتٍ، فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ**»(١).

قال المناوي(٢): «أي: الإثم على المفتي دون المستفتي، وخرج بقوله بغير علم ما لو اجتهد مَنْ هو أهلٌ للاجتهاد فأخطأ فلا إثم عليه، بل له أجر الاجتهاد»(٣).

وقول الإنسان لا علم لي في المسألة لا يُنزِل من منزلته، بل قالها خير جيل من الصحابة الكرام، و عن إبراهيم التيمي قال: سُئل أبو بكر الصديق عن الأبّ ما هو ؟ فقال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٨٢٦٦، باب/ مسند أبي هريرة رضي الله عنه، ج١٤ ص١٧. وأخرجه أبو داود في سننه، رقم ٣٦٥٧، باب/التوقي في الفتيا، ج٣ ص٣٢١. أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٥٣ باب/ اجتناب الرأي والقياس، ج١ ص٢٠. والحديث حسن كما قال الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع، رقم ٦٠٦٩، ج٢ ص١٠٤٨.

(٢) المناوي، (٩٥٢ – ١٠٣١ هـ)، محمد عبد الرؤوف بن تاج القاهري، من كبار العلماء بالدين والفنون، له نحو ثمانين مصنفا، منها: الكبير، والصغير، والتام، والناقص، عاش في القاهرة وتوفي بها، من مؤلفاته: «فيض القدير شرح الجامع الصغير»، «التوقيف على مهمات التعاريف».[الأعلام ج٦ ص٢٠٤].

(٣) المناوي، فيض القدير، ج٦ ص ٧٧، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ط الأولى، عام ١٣٥٦هـ.

(٤) مصنف بن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، باب من كره أن يفسر القرآن، ج٦ ص١٣٦، مكتبة الرشد الرياض، ط الأولى ١٤٠٩هـ، وأعله ابن حجر في الفتح بالانقطاع، ج١٣ ص٢٧١، أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط دار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ، تصحيح وإشراف محب الدين الخطيب.

وذلك في قوله سبحانه: [وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾] سورة عبس، الآية (٣١)، ومعنى الأَبَّا: يعني الكلأ والمرعى الذي لم يزرعه الناس، مما يأكله الأنعام والدواب(١).

٢. عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(٢).

وهو بمعنى الدعاء منه ﷺ على من كذب عليه(٣).

٣. عن عطاء بن أبي رباح أنه سمع عبد الله بن عباس قال: أصاب رجلا جرحٌ في عهد رسولِ الله ﷺ ثم احتلم، فأُمِرَ بالاغتسال، فاغتسل، فمات، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**قَتَلُوه قَتَلَهُمُ اللهُ! ألم يكن شِفاءُ العِيِّ السُّؤالَ؟**»(٤).

ففي هذا الحديث: أنه عابهم بالفتوى بغير علم، وألحق بهم الوعيد بأن دعا عليهم وجعلهم في الإثم قتلة له (٥).

ومن الآثار الواردة عن السلف الصالح في خطورة القول أو الفتيا بغير علم:

---

(١) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم، البغوي، ج ٨ ص ٣٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، المسند الصحيح المختصر، رقم ٣، باب/ في التحذير من الكذب على رسول الله، ج١ ص١٠.

(٣) انظر شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ج١ ص١٨٢.

(٤) سنن أبي داود (٣٣٦)، باب / في المجروح يتيمم، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود ج٢ ص١٦١ مؤسسة غراس للنشر والتوزيع بالكويت، ط الأولى ١٤٢٣هـ.

(٥) انظر معالم السنن شرح سنن أبي داود، أبو سليمان الخطابي، ج١ ص١٠٤، المطبعة العلمية بحلب، ط الأولى ١٣٥١هـ.

١. عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه -أنه قال: أيها الناس من سُئل عن علم يعلمه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، إن الله -تبارك وتعالى -قال لنبيه ﷺ: [قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾] سورة ص، الآية (٨٦) (١).

٢. عن أبي موسى- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال في خطبته: « **من عَلِم علما فليُعلِّمه الناس، وإياه أن يقول ما لا علم له به فيمرق من الدين، ويكون من المتكلفين** »(٢).

٣. عن ابن عباس -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أَفْتَى بِفُتْيَا يُعَمَّى عنهَا، فَإِثْمُهَا عَلَيْهِ**»(٣).

٤. كان ابن عيينة -رحمه الله تعالى- يقول: (أجسر الناس على الفتيا أقلهم علما) (٤).

٥. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يُقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده ؛ فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن رسول الله ﷺ جاء

---

(١) أبو عمر ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج٢ ص١١٢، مؤسسة الريان وابن حزم ١٤٢٤هـ.

(٢) أبو محمد الدارمي، سنن الدارمي ج١ ص٤٢، ط دار الكتاب العربي بيروت، ط الأولى ١٤٠٧هـ.

(٣) أبو محمد الدارمي، سنن الدارمي ج١ ص٤٢، ط دار الكتاب العربي بيروت، ط الأولى ١٤٠٧هـ.

(٤) أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي ، جامع بيان العلم وفضله، ج٢ ص٨١٦، دار ابن الجوزي، ط ١ عام ١٤١٤ هـ.

بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل أو برأي أو بقياس، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل، فضلاً عن أن يقول، فيجب تقديم العقل، ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها أو تنسخها، أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها »[١].

قال ابن مفلح[٢]: «وإن كان مَنْ يُفتي يعلم من نفسه أنه ليس أهلا للفتوى، لفوات شرط، أو وجود مانع، ولا يعلم الناس ذلك منه، فإنه يحرم عليه إفتاء الناس في هذه الحال بلا إشكال، فهو يسارع إلى ما يحرم، لا سيما إن كان الحامل على ذلك غرض الدنيا»[٣].

ويذكر أن العرب في جاهليتهم كانوا يعمدون إلى رجل يقال له: عامر بن الضرب العدواني يحتكمون إليه في جاهليتهم إذا اختلفوا، فجاءه مرة وفد من إحدى القبائل، فقالوا: يا عامر، وُجد بيننا شخص له آلتان: آلة الرجل وآلة الأنثى، ونريد أن نورثه، فهل نحكم له على أنه أنثى أو نحكم على أنه ذكر؟، فسهر هذا المشرك تلك الليلة لا يدري ما يصنع بهم، وكانت له جاريه ترعى له الغنم

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى الكبرى،ج١٣ ص٢٨، ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف عام ١٤١٦هـ.

(٢) ابن مفلح المقدسي (٧٠٨ - ٧٦٣ هـ)، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي، فقيه، أصولي، محدث، أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولد ونشأ في بيت المقدس، وتوفي بصالحية دمشق، من تصانيفه (كتاب الفروع) و (النكت والفوائد السنية على مشكل المحرر لابن تيمية) و (أصول الفقه) و (الآداب الشرعية الكبرى). [الأعلام ج٧ ص١٠٧، معجم المؤلفين ج١٢ ص٤٤].

(٣) محمد بن مفلح المقدسي، الآداب الشرعية والمنح المرعية،ج٢ ص٦٢، الناشر عالم الكتب.

يقال لها سُخْيلة، فقالت له: يا عامر، قد أكل الضيوف غنمك ولم يبق لك إلا اليسير، أخبرني، فقال: مالك ولهذا، انصرفي لرعي الغنم، فأصرت عليه، فلما أصرت عليه الجارية أخبرها بالسؤال وقال لها: ما نزل بي مثلها نازلة، فقالت له تلك الجارية التي ترعى الغنم: يا عامر، أين أنت؟ اتبع الحكم المبال، أي: إن كان يبول من آلة الذكر فاحكم عليه بأنه ذكر، وإن كان يبول من آلة الأنثى فاحكم عليه بأنه أنثى، فقال: فرَّجتها عني يا سخيلة، وأخبر الناس»(١).

وعندما نتأمل هذه القصة فهذا رجل مشرك لا يرجو جنة، ولا يخاف من نار، ولا يعبد الله، ويتوقف في مسألة ويسهر من ليلته، فكيف بمن يرجو الجنة ويخاف النار ؟! فالواجب التحري والتثبت وعدم الاستعجال في الفتوى، فالله سبحانه يقول: [وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾] سورة الإسراء، الآية (٣٦).

ولقد قالت الملائكة عند ربها، بقوله سبحانه: [قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾] سورة البقرة، الآية (٣٢).

فالقول على الله بغير علم لا ينبغي التساهل فيه، بل هو من أخطر الأمور على فكر الإنسان وأمنِ المجتمع، وهي رسالة إلى كل مَنْ تحت يده من الناشئة كالمربي والمعلم، أو مَنْ تحت يده من عامة الناس: كالخطيب في جامعته، والكاتب في صحيفته، والمعلم مع تلاميذه، الحذر أشد الحذر من التقوُّل على الله بغير علم، أو التساهل في إصدار الفتوى، والتسرع فيها دون نظر وتفكير؛ لما يترتب عليها من آثار خطيرة تضر بالفرد والمجتمع، وكم أودت بعض الفتاوى المبنية على أساس خاطئ إلى ضياع الشباب بل الأمة والمجتمع.

---

(١) إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، ج٢ ص٢٠٦، ط دار الفكر لعام ١٤٠٧هـ.

وهنا تنبيه إلى المتلقي لتلك الفتوى دون أن يعمل عقله فيها ويتأمل، فلربما أخطأ الصواب في فتواه فالواجب عرضها على أهل العلم الراسخين، أو البحث والنظر خصوصاً إذا كان المتلقي يملك آلة الاجتهاد كطالب العلم المبتدئ، فجميل منه أن ينظر ويتأمل ومَنْ ثَمَّ يعمل.

وللقول على الله بغير علم أسباب كثيرة، من أبينها وأوضحها وأخطرها أمران:

الأول: الجهل، الثاني: الهوى والابتداع.

ولقد نفَّرت الشريعة من الجهل في الدين، وحثَّتْ على العلم وطلبه، وبينت الفرق بين الفريقين، فقال الله تعالى: [أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾]

سورة الزمر، الآية (٩).

وقد فرَّقَ رسول الله ﷺ بين العالم والجاهل، وجعل فضل العالم على العابد كفضله ﷺ على أدنى رجل من أمته، وكفضل القمر على سائر الكواكب، وما ذاك إلا لخطورة آثار الجهل في الدين، وما ينتج عنه من عبادة الله بغير ما شرع، وإنشاء البدع والمحدثات.

والقائل على الله بلا علم لا يعدو حاله من أمرين: الجهل، أو الهوى والابتداع.

أما الجاهل: فقد يكون جهله عاما، وقد يكون جزئيا منحصرا في مسألته التي قال فيها بغير علم، فإنه إذا كان مريدا للحق ولكن حبه للخير وإخلاصه لله دفعاه للقول على الله بلا علم، فإنه غالبا إذا نصح، وأخبر بأن ما قاله مخالف للشريعة، فإنه سرعان ما يرجع للحق وينيب إلى الله.

أما صاحب الهوى: فإنه لا تعييه كثرة السبل، ولا يردعه الخوف من الله، ولكن تسيره الأهواء، كورق الشجر حيث مال الهوى والشهوة مال معه وانقاد. وآخرون جهلة مقرون بجهلهم، ولكن قد عرفوا قدر أنفسهم، فلم يتحملوا ما لا يطيقون حمله، وإن زل أحدهم رجع عن قوله بعد علمه بخطئه، وهذا هو ما يسميه أهل العلم **بالجاهل البسيط** وهو الجاهل الذي يدري أنه جاهل، وهذا سرعان ما تتقدم به المعرفة والعلم ويرتفع عن جهله شيئا فشيئا ما دامت هذه حاله، حتى يصل إلى ما هو خير مما هو عليه؛ ذلك لأن مَنْ عوَّد نفسه اتِّباع الحق زاد علمه، فإن الله، سبحانه وتعالى، يهديه للحق، ويزيده هدى وعلما.

ومَنْ عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

❊❊❊

المبحث الرابع:
الاغترار بما عليه أهل الكفر والانبهار به

من الأمور التي يجب اجتنابها لحماية الفكر: الاغترار بما عليه أهل الكفر والانبهار به والتشبه بهم، ومن المعلوم أن التَّشَبُّه بالغير يؤدي بالمتشبه إلى تقمص ومحاكاة شخصية مَنْ يتشبه به، وهذا بلا شك يؤدي إلى انتهاء وتلاشي شخصية المتشبِه، ويقبح ذلك الأمر ويشنع إذا كان المتشبه مسلما والمتشبَه به كافراً، ولهذا كان من حكمة الله – عز وجل – أن حرم على المسلمين التَّشَبُّه بغيرهم في عقائدهم، وأفكارهم، وعباداتهم، ومظاهرهم حتى تُصان للمسلمين شخصيتهم ويتميزون بها عن غيرهم من الأمم، ويكونون كما قال الله عنهم ووصفهم بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ سورة البقرة، الآية (١٤٣).

ومما يؤسف أن تجد فئة من شبابنا، ومن المنبهرين بحضارة الغرب، والذين عاشوا هناك من خلال دراستهم سنوات عديدة تجدهم قد وقعوا في هاوية التَّشَبُّه في الأفكار (وهو الأخطر) والآداب بل وقلدوهم في كثير من عاداتهم، إذاً المقصود من هذا المبحث هو عدم تقليد الكفار والتشبه بهم في الأفكار.

تعريف التشبه لغة: شبه، الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، والجمع أَشْباهٌ، وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ: مَاثَلَهُ، وفي المثل: من أَشْبَه أباه فما ظلم، وأَشْبَه الرجل أمه: وذلك

إذا عجز وضعف، وفي التنزيل: مُشْتَبِهاً وغير مُتَشابِهٍ، وشَبَّهه إِياه وشَبَّهَه بِهِ مَثَّلَهُ(١).

بأبِه اقْتَدَى عَدِيٌّ في الكَرمْ... وَمَنْ يُشابِهْ أَبَهُ فَما ظَلَمْ (٢).

والتشبيه في الاصطلاح: هو الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من أوصاف الشيء في نفسه، كالشجاعة في الأسد، والنور في الشمس، وهو إما تشبيه مفرد، كقوله ﷺ: « إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا..» (٣).

حيث شبه العلم بالغيث، ومن ينتفع به بالأرض الطيبة، ومن لا ينتفع به

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ج١٣ ص٥٣، دار صادر بيروت، ط الثالثة ١٤١٤هـ.

(٢) هذا البيت لرؤبة بن العجاج يمدح عدي بن حاتم:

بأبه اقْتدى عديٌّ فِي الْكَرم... وَمن يشابه أَبَهُ فَمَا ظلم
إِنِّي رَأَيْت الْأَمر أرشده... تقوى الْإِلَه وشرّه الْإِثْم
إِذا كنت فِي نعْمَة فارعها... فَإِن الْمعاصِي تزيلُ النعم
إِذا قَالَت حذام فصدَّقوها... فإنَّ القولَ مَا قَالَت حذام
إِذا أَنْت لم تُعلم طبيبك كلما... يسوءُك أبعدتَ الدّواء عَن السقْم
إِذا المرءُ لم يَأْخُذ من الصَّبْر حظَّه... تقطع من أسبابه كل مبرِم
لَا تخدعنَّك من عدوٍّ دمعة... وَارْحَمْ شبابك من عدوٍّ ترحمُ
أفعَال من ثَلد الْكِرَام كَرِيمَة... وفعال من ثَلد الْأَعَاجِم أعجمٌ
إِذا كنت لَا تَدْرِي فَتلك مُصِيبَة... وَإِن كنت تَدْرِي فالمصيبة أعظم

وعدي بن حاتم صحابي جليل (عدي بن حاتم بن عبد الله بن سلم، وأبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالجود، وفد على النبي ﷺ سنة ٩هـ في شعبان، فأسلم وكان نصرانياً، وشهد فتوح العراق و الفارسية، توفي سنة ٦٧هـ وله من العمر ١٢٠ سنة) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤ ص ٧، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى ١٤١٥ هـ.

(٣) أخرجه مسلم برقم ٢٢٨٢، باب/ بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ، ج ٤ ص ١٧٨٧، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

بالقيعان، فهي تشبيهات مجتمعة، أو تشبيه مركب،

كقوله ﷺ:«**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**»(١).

فهذا هو تشبيه المجموع بالمجموع ؛ لأن وجه الشبه عقلي منتزع من أمور، فيكون أمر النبوة في مقابلة البنيان(٢).

و التَّشَبُّه هو: عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبهَ المتشبَّه به وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته، أو هو عبارة عن تكلّف ذلك وتقصُّده وتعلّمه، وقد يعبر عن التَّشَبُّه بالتشكل والتمثل والتزيِّي والتحلي، والتخلق بخلقهم، والسير بسيرتهم وهديهم في ملبسهم، وبعض أفعالهم (٣).

وما نقصده في هذا المبحث فهو مماثلة ومحاكاة المسلم بالكافر في أفكاره فقط، وإلا فالمماثلة تدخل في أشياء كثيرة، كالعادات والأخلاق والعبادات والآداب، وغيرها من الأشكال.

وقد جاء القرآن الكريم مؤكداً حرمة التَّشَبُّه بالكفار في الأفكار والعقائد وغيرها.

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٢٨٦، باب/ ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، ج ٤ ص ١٧٩٠، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي ، وأخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٣٥٣٥، باب/ خاتم النبيين ﷺ، ج٤ ص ١٨٦، ط ١ دار طوق النجاة عام ١٤٢٢ هـ، ت/ محمد زهير بن ناصر الناصر.

(٢) الجرجاني، التعريفات، ج١ ص٥٨، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٤٠٣هـ.

(٣) انظر: حسن التنبه لما ورد في التشبه، الغزي، ج١ ص٤٩، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق والمكتبة السليمانية بتركيا، مصورة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، نقلاً من رسالة: التدابير الواقية من التشبه بالكفار، وانظر فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج ٦ ص ١٠٤، المكتبة التجارية مصر، ط ١ عام ١٣٥٦ هـ.

ومن ذلك قول الله، عز وجل: [وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾] سورة الجاثية، الآيات (١٦ – ١٩).

في هذه الآيات الكريمات، يخاطب الله، سبحانه، نبيه محمد – ﷺ – باتباع الشريعة، وهو الأمر في قوله سبحانه: [فَٱتَّبِعْهَا]، والنهي عن اتِّباع الذين لا يعلمون، وهم المشركون، وأهواؤهم، وفي الآيات التحذير من أهواء الذين لا يعلمون والحذر من التَّشَبُّه بهم(١).

و التَّشَبُّه بالكفار ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عبادات.

القسم الثاني: عادات.

القسم الثالث: صناعات وأعمال.

أما العبادات: فمن المعلوم، أنه لا يجوز لأي مسلم أن يتشبه بهم في عباداتهم، ومن تشبه بهم في عباداتهم، فإنه على خطر عظيم، فقد يكون ذلك مؤديا إلى كفره، وخروجه من الإسلام.

وأما العادات: كاللباس وغيره، فإنه يحرم أن يتشبه بهم ؛ لقول النبي ﷺ: **«مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»**(٢).

---

(١) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٢٥ ص٣٤٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٤٠٣١، باب / من لبس الشهرة، ج٤ ص٤٤، المكتبة العصرية – صيدا

وأما الصناعات والحرف: التي فيها مصالح عامة، فلا حرج أن نتعلم مما صنعوه ونستفيد منه، وليس هذا من باب التشبه، ولكنه من باب المشاركة في الأعمال النافعة التي لا يعد مَنْ قام بها متشبِّها بهم [١].

و في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة الجاثية، الآية (١٨)، نهى اللهَّ – جل وعلا – نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون، وأنه جل وعلا يأمر نبيه محمداً ﷺ وينهاه ؛ ليُشَرِّع بذلك الأمر والنهي لأمته، ومعلوم أنه ﷺ لا يتبع أهواء الذين لا يعلمون، ولكن النهي المذكور فيه التشريع لأمته، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ سورة الإنسان، الآية (٢٤) [٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ثم جعل محمداً ﷺ على شريعة شرعها له وأمره باتباعها، ونهاه عن اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون، وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته، وأهواؤهم: هو ما يهوونه، وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك، فهم يهوونه، وموافقتهم فيه اتِّباع لما يهوونه، ولهذا: يفرح الكافرون بموافقة المسلمين في بعض أمورهم ويسرون به، ويودون أن لو بذلوا عظيما ليحصل ذلك»[٣].

بيروت، ت / محمد محيي الدين عبد الحميد، وحكم عليه الألباني بأنه حسن صحيح في إرواء الغليل، ج٥ ص١٠٩، طباعة المكتب الإسلامي – بيروت، عام ١٤٠٥ هـ.

(١) انظر مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ج٣ ص٤٠، دار الوطن – دار الثريا، ط الأخيرة ١٤١٣هـ ، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان.

(٢) انظر أضواء البيان، الشنقيطي، ج ٧ ص ١٩٩، ط دار الفكر بيروت عام ١٤١٥هـ.

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم ج١ ص ٩٨، ط ٧ عام ١٤١٩ه ، دار عالم الكتب – بيروت.

ويقول الله، عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الحديد، الآية (١٦).

في هذه الآية ينهى اللهَّ المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية، وينهى عن مشابهتهم في قسوة قلوبهم، وقسوة القلوب من ثمرات المعاصي[١].

وقال سبحانه: [وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ] سورة البقرة، الآية (١٢٠).

ووجه دلالة الآية في النهي عن التشبه بالكفار، أن الله قال في الخبر: [مِلَّتَهُمْ]، وقال في النهي: [أَهْوَآءَهُم] ؛ لأن القوم لا يرضون إلا باتباع الملة مطلقًا، والزجر وقع عن اتباع أهوائهم في قليل أو كثير، ومن المعلوم أن متابعتهم في بعض ما هم عليه من الدِّين، نوع من المتابعة لهم في بعض ما يهوونه، أو مظنة لمتابعتهم فيما يهوونه[٢].

وقوله سبحانه: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾] سورة البقرة، الآية (١٠٤).

ينهانا الله في هذه الآية أن نتشبه بالكافرين في مقالهم وفعالهم، سواء في القول أو الفعل[٣].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٨ ص٢٠ ، انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ج١ ص٢٩٠.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ج١ ص٩٩.

(٣) نظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج١ ص٣٧٣.

وقد جاءت السنة النبوية تؤكد على حرمة التَّشَبُّه بالكفار أو الاغترار بهم ، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(١).

و في هذا الحديث، أقل أحواله أن يقتضي تحريم التَّشَبُّه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى: [..وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴿٥١﴾] سورة المائدة، الآية (١٥) (٢).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا، لَا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَلَا بِالنَّصَارَى،..** »(٣).

من هذه النصوص يتبين لنا: أن ترك تقليد الكفار وعدم التَّشَبُّه والاغترار بهم في أفكارهم، وسائر أحوالهم من المقاصد والغايات التي قررها القرآن الكريم، وسنة النبي ﷺ، وقد كان ﷺ كما روي عنه يتحرى مخالفة المشركين وأهل الكتاب حتى شعرت اليهود بذلك وقالت: «مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلاَّ خَالَفَنَا فِيهِ»(٤)، ولذا كان الواجب علينا حماية أفكارنا من لوث وسموم أفكار الكفار.

حكمة النهي عن التَّشَبُّه بالكفار:

للشرع حكم عديدة في النهي عن التشبه بالكفار، فمنها على سبيل المثال: ما

---

(١) سبق تخريجه، ص ٧١.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ج١ ص٢٧٠.

(٣) رواه الترمذي في سننه، باب كراهية إشارة اليد بالسلام، برقم ٢٦٩٥، ج٥ ص٥٦، ط دار إحياء التراث بيروت، وحكم عليه الألباني بالصحة في السلسة الصحيحة، برقم ٢١٩٤ج٥ ص٢٢٧، ط مكتبة المعارف الرياض.

(٤) رواه مسلم، باب/ اصنعوا كل شي إلا النكاح، ج١ ص١٦٩، دار الجيل بيروت، ومصور من الطبعة التركية لعام ١٤٣٤ه.

استنبطه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ما يلي:

١. أن أعمال الكفار مبناها على الضلال والفساد:

قال ابن تيمية: «إن نفس ما هم عليه من الهدي والخلق قد يكون مضرا أو منقصا، فيُنْهَى عنه، ويؤمر بضده لما فيه من المنفعة والكمال، وليس شيء من أمورهم إلا وهو إما مضر أو ناقص، لأن ما بأيديهم من الأعمال المبتدعة والمنسوخة ونحوها مضرة، وما بأيديهم مما لم ينسخ أصله فهو يقبل الزيادة والنقص، فمخالفتهم فيه بأن يشرع ما يحصله على وجه الكمال، ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملاً قط، فإذا المخالفة لهم فيها منفعة وصلاح لنا في كل أمورهم، حتى ما هم عليه من إتقان بعض أمور دنياهم قد يكون مضرًا بأمر الآخرة، أو بما هو أهم منه من أمر الدنيا، فالمخالفة فيه صلاح لنا»(١).

٢. أن مخالفة الكفار تحقِّق مجانبتهم ومباينتهم والبعد عن أعمالهم:

قال ابن تيمية: «إن نفس المخالفة لهم في الهدي الظاهر مصلحة ومنفعة لعباد الله المؤمنين؛ لما في مخالفتهم من المجانبة والمباينة التي توجب المباعدة عن أعمال أهل الجحيم، وإنما يظهر بعض المصلحة في ذلك لمن تنور قلبه حتى رأى ما اتصف به المغضوبُ عليهم والضالون من المرض الذي ضرره أشدُّ من ضرر أمراض الأبدان»(٢).

٣. أن التشابه يوقع شيئًا من المشاكلة:

قال ابن تيمية: «إن الله تعالى جَبَل بني آدم، بل سائر المخلوقات على التفاعل

---

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ج١ ص ١٩٨.

(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ج١ ص١٩٧.

بين الشيئين المتشابهين، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط، ولما كان بين الإنسان وبين الإنسان مشاركة في الجنس الخاص؛ كان التفاعل فيه أشد، فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي»(١).

وقال أيضا: «إن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلاً يجد من نفسه نوع تخلّق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضيًا لذلك، إلا أن يمنعه مانع»(٢).

٤. تحقيق مبدأ الولاء والبراء:

قال ابن تيمية: «إن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقيق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين» (٣).

٥. تمييز المسلمين عن غيرهم من الكفرة والملحدين:

قال ابن تيمية: «إن مشاركتهم في الهدي الظاهر توجب الاختلاط الظاهر،

---

(١) المرجع السابق، ج١ ص ٥٤٧ - ٥٤٨.

(٢) المرجع السابق، ج١ ص٩٣.

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، ج١ ص٩٣.

حتى يرتفع التميّز ظاهرا بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين»[١].

ولشفقته وحرصه ﷺ حذر من بعض الفرق التي تؤثر في الفكر، وخطرها عظيم، وقد يكون خطرها أشد من الكفار؛ لما يتلبسون به من لباس الدين، والذي من خلاله يبثون فيه أفكارهم السامة الخطيرة على الناشئة وعوام الناس، ولذلك رتب عليها الأجر العظيم لمن يقوم بقتالهم لما لهم من خطر على الإسلام، كل ذلك لحفظ شريعة الله من الأفكار الهدَّامة وصيانة لجانب التوحيد والحفاظ على شريعته.

قال علي- رضي الله عنه-: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثا، فوالله لأن أَخِرَّ من السماء، أحبُّ إليّ من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم، فإن الحرب خدعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا، لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٢].

وفي مسند الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب، أتى

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ص٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيح البخاري، رقم ٦٩٣٠، باب/ قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة، ج٩ ص ١٦، ط ١ دار طوق النجاة عام ١٤٢٢هـ، ت/ محمد زهير بن ناصر الناصر، وأخرجه مسلم في صحيح مسلم، باب / التحريض على قتل الخوارج، ج٢ ص ٧٤٦، طباعة دار إحياء التراث العربي بيروت، ت / محمد فؤاد عبد الباقي.

النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»(١).

وهذا فيه درس وعبرة لشبابنا وللمربين بتوجيه الناشئة إلى خطورة التأثر بالفكر الغربي ومحاكاته في العادات والأفكار، فالنبي ﷺينكر على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه – اطـّلاعه على نسخة من التوراة ؛ لاحتمال تأثر فكر عمر- رضي الله عنه- بما يحمله الكتاب من أفكار لا تنسجم مع طبيعة الرسالة المحمدية التي هي واضحة نقية لا شائبة فيها، فمن باب حماية الفكر وخشية تأثر الفكر نهاه النبي ﷺ عن الاطـّلاع على تلك الصحيفة.

وخلاصة القول في هذا المبحث:

أن هناك اتجاهات فكرية دخيلة وضعت يدها مع أولئك الكفار، وتعمل جاهدة على تشكيك أبنائنا وفلذات أكبادنا، والتغرير بهم في عقائدهم وأفكارهم المنحرفة، وتنمية الاعتقاد في نفوسهم بأن ديننا بشرائعه أصبح قديمًا لا يصلح

(١) أخرجه الأمام أحمد في مسنده، باب/ مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ج ٢٣ ص ٣٤٩، ط١ مؤسسة الرسالة عام ١٣٢١ هـ، ت/ شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وأخرون، وحسَّنه الألباني في إرواء الغليل، ج ٦ ص٣٤، وقال الحديث قوي وله شواهد كثيرة.

للتطبيق في هذا العصر، هذه الاتجاهات تأتي من خلال تلك الأشكال السامة القذرة والتي ضربها العفن، وأخطرها التغريب والعلمانية والغلو في الدين، وهم الذين يكفرون ويفسقون ويدعون الناس حسب أهوائهم وأغراضهم الدنيئة، فبالفكر الأصيل تستطيع أن تدحر هذه الأفكار الضالة.

❊❊❊

الفصل الثاني:
الأمور التي ينبغي التزامها لحماية الفكر

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: إعمال العقل والبعد عن الظن.

المبحث الثاني: التسلح بالعلم الشرعي.

المبحث الثالث: الثبات على الحق والبعد عن التقليد المذموم.

المبحث الرابع: رد الحكم إلى الله والرسول عند الاختلاف من خلال القرآن الكريم.

المبحث الخامس: التربية الإيمانية والدعاء بالثبات.

المبحث الأول:

إعمال العقل والبعد عن الظن

امتدح الله، عز وجل، أهل الفكر وأصحاب التأمل وأمر سبحانه بالتفكر في مخلوقاته، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ سورة آل عمران، الآيات (١٩٠ – ١٩٤).

روى ابن حبان، عن عائشة مرفوعا: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا» (١).

إن ذكر الله – تعالى – لا يكفي في الاهتداء إلى الآيات، ولكن يشترط مع الذكر التفكر فيها، فلا بد من الجمع بين الذكر والفكر، فقد يذكر المؤمن بالله ربَّه، ولا يتفكر في بديع صنعه، وأسرار خليقته؛ ولذلك قال تعالى: [وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] (٢).

---

(١) محمد بن حبان البستي، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة بيروت، ط ١٤٠٨ ه، ت/ شعيب الأرنؤوط، وقال الألباني في السلسة الصحيحة رقم (٦٨) بأنه صحيح.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٤ ص٢٤٣.

وعندما يكون المؤمن دائم التفكر والنظر في آيات الله، سبحانه، ويُعمل عقله فإنه – حتماً – سيزيد إيمانه وتمسكه بالدين، وعندما نتأمل قصة نبي الله إبراهيم مع قومه ندرك خطر تعطيل الفكر وعدم التأمل والنظر.

فالله سبحانه يقول: [وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾] سورة الشعراء، الآيات (٦٩ – ٧٤).

فحينما سألهم إبراهيم منبها على فساد مذهبهم: هل يسمعون دعاءكم إذ تدعونهم، أو يقدمون لكم نفعا إذا عبدتموهم، أو يصيبونكم بضر إذا تركتم عبادتهم؟ لم يجيبوا بشيء، وهنا يكمن الخطر عندما يعطل الإنسان فكره ولا يعمل عقله، ويبني عقله على أوهام وظنون!.

الظن في اللغة:

الظاء والنون أُصَيْلٌ صحيحٌ يدل على معنيين مختلفين: يَقِينٍ وَشَكٍّ، أما الْيَقِينُ فقول القَائِلِ: ظَنَنْتُ ظَنًّا، أَيْ: أَيْقَنْتُ [(١)].

والظن لغةً: يستعمل في معنى الشك: وهو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك[(٢)].

قال تعالى: [قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ] سورة البقرة، الآية (٢٤٩).

أراد، واللهَّ أعلم، يوقنون، والعرب تقول ذلك وتعرفه، وهو في القرآن كثير.

---

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج ٣ ص٤٦٢.

(٢) الجرجاني، التعريفات، ج١ ص١٢٨.

قال شاعرهم: فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج.. سراتهم في الفارسي المسرد(١).

وفي الاصطلاح: التردد بين أمرين استويا أو ترجح أحدهما على الآخر (٢).

الظن في القرآن الكريم: إن الناظر في القرآن الكريم يجد أنه قد تناول ألفاظ الظن بصيغ مختلفة، وقد ذكر المفسرون لهذا اللفظ معاني متعددة وحسب مناسباته وسياقاته، وورد لفظ الظن في القرآن في (٥٨)موضعا، ومن المعاني التي جاء بها، العلم الجازم واليقين، ودليل ذلك قول الله، عز وجل: [أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾] سورة المطففين، الآية (٤-٦).

والظن هنا بمعنى اليقين، ويستعمل في معناه الحقيقي المشهور، وهو اعتقاد وقوع الشيء اعتقاداً راجحاً على طريقة قوله تعالى: [إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ] سورة الجاثية، الآية (٣٢).

وقوله تعالى: [ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ] سورة البقرة، الآية (٤٦).

والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين، أكثر من أن تحصر، ومنه قول اللهَّ تعالى: [وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا] سورة الكهف، الآية (٥٣)، (٣).

---

(١) الأصمعي، الأصمعيات، باب / دريد بن الصمة، ج ١ ص١٠٧، ط ٧ عام ١٩٩٣ م، دار المعارف – مصر، ت / أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون.

(٢) التهانوني، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج٢ ص١٢٥٢.

(٣) انظر تفسير القرآن الكريم، ابن كثير، ج١ ص٢٥٤.

وقوله سبحانه:[وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ] سورة ص، الآية (٢٤).

أي وعلم.

ويأتي الظن بمعنى الشك لقوله، سبحانه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ سورة غافر، الآية (٣٦ – ٣٧).

أي: وإني لأظن موسى كاذبا في ادعائه إلها دوني، وإنما أفعل ما أفعل لإزاحة العلة، وهذا يوجب شك فرعون في أمر الله(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة ص، الآية (٢٧).

ومعنى هذه الآية: أن الكفار يظنون أن هذه الأشياء خُلقت لا لغرض، ويقولون إنه لا قيامة، ولا بعث، ولا حساب، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلا(٢).

وقوله تعالى: [وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ] سورة فصلت، الآية (٢٣).

أي أن أسباب الضلال في العقائد كلها ؛إنما تأتي على الناس من فساد

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٥ ص٣١٥.

(٢) انظر فتح القدير، الشوكاني، ج٤ ص ٤٣٠، ط ١ عام ١٤١٤ ه، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق – بيروت.

التأمل، وسرعة الإيقان، وعدم التمييز بين الدلائل الصائبة والدلائل المشابهة، وكل ذلك يفضي إلى الوهم المُعَبَّر عنه بالظن السيئ، أو الباطل، وقد ذكر الله مثله في المنافقين وأن ظنهم هو ظن أهل الجاهلية، فقال:[..يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ قَدْ .﴿١٥٤﴾] سورة آل عمران، الآية (١٥٤).

فليحذر المؤمنون من الوقوع في مثل هذه الأوهام فيبوؤوا ببعض ما نُعي على عبدة الأصنام

وقد قال النبي ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**»(١).

يريد الظن الذي لا دليل عليه(٢).

وقوله سبحانه: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ سورة الفتح، الآية (٦-٧).

وظن السوء يحتمل وجوها: أحدها: هو الظن الذي ذكره الله في هذه السورة بقوله سبحانه: [بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ] سورة الفتح، الآية (١٢).

ثانيها: ظن المشركين بالله في الإشراك، كما قال تعالى: [إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٦٠٦٤، باب/ ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ج٨ ص ١٩، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٥٦٣، باب/ تحريم الظن والتجسس والتنافس، ج ٤ ص ١٩٨٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٢٤ ص٢٧٢.

سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم...] إلى قوله [... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا] سورة النجم، الآية (٢٣ – ٢٨).

ثالثها: ظنهم أن الله لا يرى ولا يعلم كما قال سبحانه: [وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ] سورة فصلت، الآية (٢٢).

والمراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذي ظنوا أن الله لا يحيي الموتى، وأن العالم خلقه باطل كما قال تعالى: [ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟] سورة ص، الآية (٢٧) (١).

ومن هنا، ليعلم أن أعظم الذنوب عند اللهَّ إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته، ولهذا توعد اللهَّ سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، قال تعالى [عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا] سورة الفتح، الآية (٦) (٢).

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله، فالمؤمن حقا يحسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائما، يتوقع منه الخير في السراء والضراء، ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالتين، وسر ذلك أن قلبه موصول بالله، ومتعلق به سبحانه، وأما المنافقون والمشركون: فهم مقطوعو الصلة بالله، ومن ثم لا يحسون بتلك اللذة الإيمانية ولا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله

---

(١) انظر مفاتيح الغيب، الرازي، ج٢٨ ص٧٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣ عام ١٤٢٠ه.

(٢) انظر الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، فصل سوء الظن بالله، ج١ ص ١٣٨، دار المعرفة المغرب ط، الأولى ١٤١٨ هـ.

وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون عليها أحكامهم، ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً، والعياذ بالله.

وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة (١).

وكثير من قضايا العلوم بأنواعها يُكتفى فيها بغلبة الظن مثل: كثير من قضايا الفقه الاجتهادية، وكذلك قضايا الجرح والتعديل للرواة في علم الحديث، والأحكام التاريخية وأمثالها، فهذه يحصل الخطأ فيها – غالباً – من إنزال الأدلة التي لا توصل سوى إلى الوهم أو الشك منزلة الأدلة الظنية وربما منزلة الأدلة القطعية، وربما حملهم على ذلك أمور منها: كثرة دوران المعلومة وتناقلها بين الخاصة والعامة حتى التبست بالعلوم المستفيضة أو المتواترة ؛ مما يؤدي إلى جزم المتلقي بها أو غلبة أمر صحتها على ظنه فيجعلها مقدمة صحيحة ويبني عليها نتائج يجزم بصحتها مع أنها باطلة في حقيقة الأمر.

ومما تجد، وللأسف، من تصرف بعض الشباب المبتدئين في طلب العلم تَنَقُّصُهم لأهل العلم، والذين قد بلغوا من العمر عتيا في طلبهم للعلم ونشره، فتجد، مثلا هذا العالم قد تراجع في بعض أقواله السابقة التي كان يفتي بها أو الذي كان يتبناها، نجد، وللأسف، بعض الناس يقومون بالوصاية الفكرية مع احتمال الظنون المفرطة السيئة بأنَّ هذا الشيخ، أو الباحث انتكس، أو تراجع، أو أنَّه من أهل الأهواء، ولا يحملون شيئا من الظنون الخيِّرة في ذلك الشيخ أو الباحث والذي لا يُعلم عنه إلاَّ أنَّه متجرد للحق، ومخالف للكذب، ولا يظهر منه إلاَّ تعظيم نصوص الوحيين وكلام العلماء الربَّانيين، فقد تجد التهم ضدَّه تُلقى

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٢ ص١٤٥.

جزافاً دون بيِّنة، أو برهان، أو إنصاف، مع أن الخلاف الذي وقع فيه خلاف لا يترتب عليه خروج من الملة، أو الإسلام ؛ وإنما هو من الخلاف السائغ الذي يسع فيه الخلاف بين العلماء، وليس الخلاف عن هوى، وإنما اجتهد من خلال النصوص الظاهرة له.

وأما مَنْ بلغ به الحال إلى الاختلاف والتّفرُّق حتى يوالي ويعادي ويقاتل على مثل هذا ونحوه، مما سوغه اللهَّ تعالى كما يفعله بعض أهل المشرق، فهؤلاء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا(١).

ومن المسلمين من يتلذذ بسوء الظن بأخيه فيتهمه بما ليس فيه اتِّباعا لما يلقي الشيطان في قلبه، ولا يتبين، ولا يتثبت ؛وإنما يطلق الحبل على غاربه للشيطان يلعب به كيفما يشاء... وهذا المرض من أخطر الأمراض في الجماعة المسلمة إذا تفشى نشأت عنه الأحقاد والنفاق والكراهية.

وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس، وقد قال ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهَّ إِخْوَانًا**»(٢)، والفرق بينهما، أنّ التجسس: يكون في تطلع الأخبار، والتحسس، بالمراقبة بالعين، فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين... فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر، فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن، وأن ذلك خبثه يترشح منه ؛وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير؛ والمنافق يطلب العيوب والمؤمن

---

(١) انظر الفتاوى، ابن تيمية، ج٢٢ ص٦٦، ولزيادة الفائدة ينظر في كتاب أسباب اختلاف الفقهاء، للدكتور عبد الله التركي، ص٤٥، مؤسسة الرسالة، ط الثالثة ١٤٣١هـ.

(٢) سبق تخريجه، ص ٨٢.

سليم الصدر في حق كافة الخلق[١].

و المراد أن يُغَلَّب جانب الظن الحسن فيمَنْ راجعوا بعض آرائهم وخالفوها عما كانوا يقولون بها سابقا - وذلك تحت منظار البحث ومجهر البينة والدليل - وكف اللسان والتجريح بهم والدخول في النوايا فهذا مما لا يرضاه الله سبحانه، وإنما الواجب عليهم أن يغلبوا جانب الحسن، ويقولوا: إنَّ العلماء بشر يصيبون ويخطئون، وإنَّ العلماء لا زالوا يتعلمون ما داموا أحياء، وإنَّ المرء قد يرى رأيا في مسألة بناء على دليل وتعليل، ثمَّ يخالفها بعد فترة من الزمن لأنَّه رأى دليلاً أقوى منها، بناء على وجود الأدلة والقرائن التي تحفُّ هذه المسألة.

وكم نحن بحاجة في هذا الزمن في تربية شبابنا إلى عدم الاستعجال في إصدار الأحكام على الآخرين، والشيء الآخر مَنْ قام بتكليفك لتصدر تلك الأحكام على العلماء وطلبة العلم والواجب عدم الخوض في مثل هذا، والتَّفَهُّم أنّ الخلاف هو من طبيعة البشر، وأنّ العلماء بشر يخطئون ويصيبون، عندها تكون النفس على طمأنينة وراحة بال، لأنها سلمت من الدخول في النيات والحكم على الناس.

وقال دعبل الخزاعي في بيت شعري نحو هذا الموضوع:

تـــأنَّ ولا تعجـــل بلومـــك صـــاحبا لعـــل لـــه عـــذراً وأنـــت تلـــوم[٢]

❊❊❊

(١) انظر إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج٢ ص ١٧٧، دار المعرفة – بيروت.

(٢) الحسن بن علي التنيسي ابن وكيع، المنصف للسارق والمسروق منه، ج ١ ص ١٥٠، الناشر: جامعة قات يونس بنغازي – ط أولى عام ١٩٩٤ م ، تحقيق / عمر خليفة بن إدريس.

المبحث الثاني:
التسلُّح بالعلم الشرعي

مما لا يخفى على ذي عقل وصاحب لُبٍّ، أن عزة الإسلام والمسلمين في تمسك أفراده بهذا الدين القويم، التمسك بالمصدرين، الكتاب والسنة ففيهما النجاة، عند ذلك ينطلق الفكر على أساس سليم وصحيح بعيدًا عن الشبهات، فيتوصل حينها إلى أحكام ترفع شأن الأمة، وتصل إلى نتيجة حتمية هي: التوصل إلى فكر نير سليم، والذي يؤسف له في الوقت الحاضر انشغال الأمة عن هذين المصدرين العظيمين؛ مما أدى إلى الانحراف في الفكر، وحتى تطور الأمر إلى الانحراف عن الدين إما بجحود أركانه، أو الاعتقاد بأنه غير صالح لا لزمان ولا لمكان، والعياذ بالله، وتُعاني الأمة في هذا العصر من خطر تلك الانحرافات والتي تبلورت في جماعات وتحزبات تبنت أفكاراً تكفيرية هدَّامة، وتلونت على أشكال فيها زخرف القول غروراً، واستطاع بذلك أعداء الإسلام استغلال هذا الوضع، فقاموا وقعدوا وكثفوا جهودهم وحركاتهم لصد شباب المسلمين عن التمسك بهذين المصدرين النورين، ونجاة الإنسان مرهونة بامتثاله وتمسكه بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ يقول الله عز وجل:

[فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ] سورة الزخرف، الآية (٤٤).

أي: تمسك يا محمد، بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك، فإنك على صراط مستقيم ومنهاج سديد وذلك هو دين الله الذي أمر به وهو الإسلام،

وخذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه الحق الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم(١).

و قال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ سورة الزمر، الآية (٩).

و هذا تنبيه عظيم على فضيلة العلم، والذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، وفي هذه الآية مدح لأهل العلم الشرعي، ورفعة قدرهم، وذم للجهل ونقصه(٢).

و العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله: هو معراج الكمال الإنساني، وأعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أقوياء سعداء، وأما العلم بسنته تعالى في خلقه فهو وسيلة ومقصد.

يقول سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ سورة التوبة، الآية (١٢٢).

و ذُكِرتْ كلمة التَّفَقُّه في عشرين موضعا من القرآن، تسعة عشر منها تدل على أن المراد به نوع خاص من دقة الفهم، والتعمُّق في العلم، الذي يترتب عليه الانتفاع به، وأظهره نفي الفقه عن الكفار والمنافقين ؛ لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفي فقهه عنهم، ففاتتهم المنفعة من الفهم الدقيق، والعلم المتمكن من النفس.

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري، ج٢٠ ص٦٠٢، و انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، ج٧ ص٢٢٢.

(٢) انظر مفاتيح الغيب، الرازي، ج٢٦ ص٢١٦، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٥ ص٢٤٠، دار عالم الكتب الرياض ١٤٢٣ه، انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج١ ص٣٦٦.

وليس التَّفَقُّه في الدين إلا علم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ [١].

وقال سبحانه: [شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ] سورة آل عمران، الآية (١٨).

في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم ؛ فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء... فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم، والمراد بأُولي العلم هنا: علماء الكتاب والسنة، وما يتوصل به إلى معرفتهما[٢].

وقول الله عز وجل:[إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ] سورة فاطر، الآية (٢٨).

والعلماء – بلا شك – هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب، ومن ثَمَّ يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته سبحانه برؤية حقيقة إبداعه، و يخشونه ويتقونه ويعبدونه.

ومن الأحاديث الدالة على وجوب التمسك بالكتاب والسنة وأن النجاة والفلاح في العمل والاعتصام بهما.

– ما رواه أبو هريرة– رضي اللهَّ عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي قَدْ**

(١) انظر تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٩ ص٣٥٢.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٤ ص٤٠، وانظر فتح القدير، الشوكاني، ج١ ص٣٢٥.

تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»(١).

- وعن العرباض بن سارية السلمي - رضي اللهَّ عنه - قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله - عَزَّ وَجَلَّ - والسمع وَالطَّاعَة، وَإِن تَأمر عَلَيْكُم عبد حبشي، وَإِنَّهُ من يَعش مِنْكُم فسيرى اخْتِلَافا كثيرا، فَعَلَيْكُم بِسنتي وَسنة الْخُلَفَاء الرَّاشِدين المهديين، عضوا عَلَيْهَا بالنواجذ، وَإِيَّاكُم ومحدثات الْأُمُور، فَإِن كل بِدعَة ضَلَالَة**» (٢).

- وعن معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»(٣).

---

(١) رواه الحاكم في كتابه المستدرك على الصحيحين برقم ٣١٩، باب/ فأما حديث عبد الله بن نمير، ج١ ص١٧٢، ط ١ دار الكتب العلمية – بيروت، عام ١٤١١هـ، ت/ مصطفى عبد القادر عطا، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٩٣٧، ج١ ص ٥٦٦، دار المكتب الإسلامي.

(٢) رواه الترمذي في سننه ت شاكر، برقم ٢٦٧٦، باب/ ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ج٥ ص ٤٤، ورواه أحمد في مسنده برقم ١٧١٤٤، باب/ حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ، ج٢٨ ص٣٧٣، ورواه ابن ماجه في سننه برقم ٤٢، باب/ اتِّباع سنة الخلفاء الراشدين، ج١ ص١٥، ورواه أبو داود في سننه برقم ٤٦٠٧، باب/ في لزوم السنة، ج٤ ص ٢٠٠، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، باب/ ذكر وصف الفرقة الناجية من بين الفرق التي تفترق عليها أمة المصطفى ﷺ ج١ ص١٧٨، وربما زاد الحرف والكلمة، وفي آخره « فإن كل محدثة بدعَة وكل بدعَة ضَلَالَة ».

(٣) رواه أبو داود في سننه، باب/ شرح السنة، ج٤ ص١٩٨، طباعة المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد، وحكم عليه الألباني في السلسة الصحيحة، باب ٢٠٤ بأنه حسن.

- وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»(١).

قال ابن حجر: «وأبْعدَ من أبدع فردّ على مَنْ جعل ذلك منقبة لأهل الغرب أنه مذمة» لأن المراد بقوله، ظاهرين على الحق أنهم: غالبون له، وأن الحق بين أيديهم كالميت، وأن المراد بالحديث ذم الغرب وأهله لا مدحهم»(٢).

قال الشاطبي: «وفي الحديث ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، والتَّفرُّق ناشئ عن الاختلاف في المذاهب والآراء إن جعلنا التفرق معناه بالأبدان - وهو الحقيقة - وإن جعلنا معنى التفرق في المذاهب، فهو الاختلاف، كقوله سبحانه:[**وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾**] سورة آل عمران، الآية (١٠٥)»(٣).

والتمسك بالكتاب والسنة يكون منهجاً إذا فهم ذلك حسب فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ولهذا هناك بعض الفرق تَدَّعِي تمسُّكها بالكتاب والسنة، لكن أفهامهم للنصوص تختلف بتاتا عن فهم السلف الصالح؛ لذا تجد فيها التخبطات والآراء العجيبة الغريبة لأنها حَكَّمَتْ الأهواء ومقاييس المتعالمين وليس العلماء الربانيين.

وفي هذا يقول ابن القيم -وهو يتكلم عن الاعتصام بالكتاب والسنة -:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب/ قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»، ج٣ ص١٥٢٣، طباعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) ابن حجر، فتح الباري لشرح صحيح البخاري، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، ج١٣ص٢٩٥، ط دار المعرفة بيروت ١٣٩٧هـ، تحقيق فؤاد عبد الباقي.

(٣) الشاطبي، الاعتصام، ج٢ ص١٦٤، ط المكتبة التجارية بمصر.

«فالدِّين كله في الاعتصام به وبحبله، علما وعملا، وإخلاصا واستعانة، ومتابعة، واستمرارا على ذلك إلى يوم القيامة»[(١)].

ومما يؤكَّد عليه في هذا المبحث -وهو مناسب للعلم الشرعي - ضرورة ارتباط شباب المسلمين بالعلماء الربانيين ؛ لأن للعلماء دوراً كبيراً في حماية أفكار شبابنا من الانحراف من خلال ردهم وتصديهم لأقوال المشككين المغرضين عبر وسائلهم المختلفة، خاصة في هذا العصر والذي كثرت فيه وسائل الانحراف الفكري، وما إن ينشغل أهل الفكر السليم والعلماء الربانيون عن استقبال الشباب، والتحاور معهم، والنزول إلى مستواهم، فإنه سيؤدي إلى انصراف كثير منهم إلى الفضائيات وشبكات الاتصال، وأهل الفكر المنحرف؛ لينتج عنه تأثر شباب بأفكار هدَّامة قد تكون من الصعوبة إجلاؤها بسبب ترسبها ومضي زمن عليها لذا واجب أهل العلم وأصحاب الفكر تكثيف الجهود حول الشباب.

وفي دراسة الباحث آل سليمان حول أسباب الإرهاب الدُّولي، وكثرة مَنْ يتبنى تلك الأفكار الخطيرة على الأمة والمجتمع، أشارت إلى أن مما ساعد على انتشار ظاهرة التطرف الديني هو قصور أداء رجال الدين ذوي الفكر المتفتح والعقل المستنير في أداء الواجب بالمسؤولية [(٢)]، لذا في الغالب لا يأتي الانحراف الفكري إلا لذوي الشخصيات الضعيفة الركيكة علميا، والبعيدة عن العلم

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٣ ص٣٠٣،ط دار الكتاب العربي، بيروت ط ٣ عام ١٤١٦هـ.

(٢) ينظر رسالة الأساليب الواقية من الانحراف الفكري ص ٢١، بحث لاستكمال درجة الماجستير مقدمة من الباحث محمد الدوسري لقسم الإدارة التربوية في جامعة أم القرى بمكة المكرمة لعام ١٤٣٣هـ.

الشرعي النقي، أما أهل العلم، أو الشباب الملازمين للعلماء الربانيين، فإنه من الصعب أن يذوب في شخصيتهم، أو يتأثر بأفكارهم المنحرفة، والفلاح والكمال والفوز والنجاح في الدنيا والآخرة لا يكون إلا بالتَّمَسُّك والتَّسَلُّح بالكتاب والسنة.

❊❊❊

المبحث الثالث:

الثبات على الحق والبعد عن التقليد المذموم

إن من أعظم نعم الله سبحانه، على العبد هو الثبات على المنهج الحق، والاستقامة على الصراط المستقيم وشرعه العظيم وطريقه الموصل إلى جناته ورضوانه، فأعظم كرامة يهبها لك سبحانه هي الثبات على الحق والاستقامة عليه في الفكر والمبادئ والعقائد، ولذا كان ﷺ يُكثر من دعاء «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، لما ثبت عن أنس، قال: كان النبي ﷺ يُكثر من أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» قال: فقلنا يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا ؟قال: فقال: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا»(١).

فالثبات على الأفكار الصحيحة الموافقة لهدي كتاب الله وسنة نبيه ﷺ من أعظم النعم، كما أن خطورة الزيغ في الأفكار من أشد النقم.

يقول تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم ١٢١٠٧، باب/ مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، ج١٩ ص١٦٠، ط ١ مؤسسة الرسالة عام ١٤٢١ هـ، ت/ شعيب أرنؤوط – عادل مرشد وآخرون، ورواه ابن ماجه في سننه، باب/ دعاء رسول الله ﷺ ج ٢ ص ١٢٦٠، طباعة دار إحياء الكتب العربية، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، ورواه الترمذي، باب/ ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، ج٤ ص ٤٨٤، ت/ أحمد شاكر، ط ٢ مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ١٣٩٥هـ، وحكم عليه الألباني بالصحة، برقم ١٠٢، في المشكاة، ج١ ص٣٧، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي – مشكاة المصابيح، ط المكتب الإسلامي – بيروت، ط٣ عام ١٩٨٥ م، ت/ محمد ناصر الدين الألباني.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ سورة إبراهيم، الآية (٢٧).

أي: يحقق اللهَّ أعمالهم وإيمانهم بالقول الحق، وهو فيما قيل: شهادة أن لا إله إلا اللهَّ وأن محمدا رسول اللهَّ، و أن اللهَّ يثبتهم في قبورهم قبل قيام الساعة(١).

و الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الفكر وعدم الانحراف، وهو أن الله تعالى إنما ثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على طاعة الله سبحانه، و كلما كانت المواظبة على فعل الطاعات أكثر، كان رسوخ الإيمان في القلب أقوى، وينعكس ذلك على فكره، و كلما كانت مواظبة العبد على ذكر «لا إله إلا اللهَّ» وعلى التأمل في حقائقها، والعمل بما فيها أكمل وأتم كان رسوخ هذه المعرفة في عقله، وفكره، وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل، ولذا قال ابن عباس – رضي الله عنه –: «من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته اللهَّ عليها في قبره ويلقنه إياها»(٢).

فالعمل الصالح وكثرته، والتقرب إلى الله والبعد عن التقليد، مرتبط بصلاح فكره من الانحراف والزيغ، ويثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها (٣).

---

(١) انظر: تفسير الطبري، ج١٣ ص٦٧٥، تفسير البغوي،ج٣ ص٣٨.

(٢) نظام الدين الحسن النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، باب التفسير، ج٤ ص ١٩٢، الناشر / دار الكتب العلمية، بيروت عام ١٤١٦ ه، ت/ الشيخ زكريا عميرات.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، السعدي، ج١ ص٤٢٥.

ومن صور التثبيت أيضاً للذين آمنوا: أن الله يُيسر لهم الأقوال والطاعات الإلهية على وجهها، وإدراك دلائلها حتى تطمئن إليها قلوبهم، فيصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين، وعاملين بها غير مترددين أو مشككين.

وقوله تعالى: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ]سورة محمد، الآية(٧).

ففي نصر الله تعالى وجوه: الأول: إن تنصروا دين الله وطريقه، والثاني: إن تنصروا حزب الله وفريقه، الثالث: المراد نصرة الله حقيقة، ويثبت أقدامكم عند القتال، وقيل: على الإسلام، وقيل: على الصراط، وقيل: تثبيت القلوب بالأمن(١).

تكون نصرة الله تعالى من خلال إيضاح دلائل الدين وإزالة شبهة القاصرين وشرح أحكامه، وفرائضه وسننه وحلاله وحرامه، والعمل بها(٢).

ويقول سبحانه: [وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا] سورة الفرقان، الآية (٣٢).

أي: لنشدد به فؤادك ونربط على قلبك، بوحيه الذي نزل به جبريل عليك من عند اللهَّ، كما فعل بالمرسلين من قبلك لتزداد طمأنينة وثباتًا، وخصوصاً عند أسباب القلق، فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم، وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلا قبل ذلك ثم تذكره عند حلول سببه(٣).

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ج٢٨ ص٤٢، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٦ ص ٢٣١.

(٢) انظر: روح المعاني، الآلوسي، ج٨ ص٣٨٩، دار إحياء التراث العربي.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، أبي حاتم الرازي، ج٨ ص٢٦٩٠، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط الثالثة ١٤١٩ه، وانظر: تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، السعدي، ج١ ص٥٨٢.

ويقول سبحانه: [وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ] سورة هود، الآية (١٢٠).

ولقصص القرآن فوائد عظمة منها: تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة، وعلى الصبر واحتمال الأذى، وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى فيها مشاركاً خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة إذا عمت خفت، فإذا سمع الرسول -عليه الصلاة والسلام -هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء- صلوات الله عليهم -مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

ومعنى قوله سبحانه: [مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ] أي: ما نجعل به فؤادك مثبتا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ووفور طمأنينته، لأن تكاثر الأدلة أثبتُ للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم، ولكي يطمئن ويَثْبُتَ ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، لأن النفوس تأنس بالاقتداء(١).

ويقول سبحانه: [إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ] سورة الأنفال، الآية (١٢).

ففي قوله سبحانه: [فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟]، المراد هنا: يتثبت الذين أمنوا، أي بدفع الوسواس، وبالقتال معهم والحضور مددا وعونا، وهذه آثار الطمأنينة والسكينة، والربط على القلوب المدلول عليه بمفهوم المخالفة من قوله تعالى: [..فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ] سورة الحشر، الآية (٢) (٢).

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ج٢ ص٥٣٥، وانظر: تفسير تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، السعدي، ج١ ص٣٩٢.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ج٥ ص٢٦٤، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٤١٨هـ، وانظر:، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، ج٨ ص٢٠، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، عام ١٤١٥ هـ.

وقد جمع اللهَّ تعالى الأمرين المنطوق والمفهوم في قوله تعالى: [إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟] سورة الأنفال، الآية (١٢)، فنَصَّ على الطمأنينة بالتثبيت في قوله: [فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ]، ونَصَّ على الرعب في قوله:[سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ]، فكانت الطمأنينة تثبيتا للمؤمنين، والرعب زلزلة للكافرين.

فذكر اللهَّ تعالى أربعة أسباب للطمأنينة:

الأولى: الثبات، وقد دل عليها قوله تعالى: [إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ] سورة الصف، الآية (٤).

والثانية: ذكر اللهَّ كثيرا، وقد دل عليه قوله تعالى: [أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ] سورة الرعد، الآية (٢٨).

والثالثة: طاعة اللهَّ ورسوله، ويدل لها قوله تعالى: [وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ] سورة محمد، الآية (٢٠).

والرابعة: الاعتصام والألفة.

ويدل عليها قوله تعالى: [وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ] سورة آل عمران، الآية (١٠٣).

ويقول سبحانه: [فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا] سورة النساء، الآية (١٧٥).

ويوفقهم لإصابة فضله الذي تفضل به على أوليائه، ويسددهم لسلوك منهج مَنْ أنعم عليه من أهل طاعته ولاقتفاء آثارهم، واتِّباع دينهم، وذلك هو

الصراط المستقيم، وهو دين اللهَّ الذي ارتضاه لعباده، وهو الإسلام(١).

والطريق المستقيم طريق واضح لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على مِنهاج الاستقامة، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والأفكار والعادات، وفي الآخرة على صراط اللهَّ المستقيم المفضي إلى جنات النعيم.

ووردت كذلك أحاديث تدور حول الثبات منها:

عن حسان بن عطية، قال: كان شداد بن أوس في سفر، فنزل منزلا، فقال لغلامه: ائتنا بالسفرة نعبث بها، فأنكرتُ عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطِمُها وأزُمُها غير كلمتي هذه، فلا تحفظوها علي، واحفظوا مني ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**»(٢).

حدثنا أبو موسى الأنصاري، قال: حدثنا معاذ بن معاذ، عن أبي كعب صاحب الحرير، قال: حدثني شهر بن حوشب، قال: قلت لأم سلمة: يا أم

---

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم ، الطبري، ج٧ ص٧١٢.

(٢) رواه أحمد في مسنده، برقم ١٧١١٤، باب/ حديث شداد بن أوس، ج ٢٨ ص٣٣٨، وحكم عليه الأرناؤوط في المسند بأنه حسن في مجموع طرقه، وصححه الألباني بلفظه «عن طريق سليمان بن عبد الرحمن عن إسماعيل بن عياش عن أبي الأشعث الصنعاني عن شداد بن أوس.. الحديث»، برقم ٣٢٢٨، ج٧ ص٦٩٥، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» قالت: فقلت: يا رسول الله ما لأكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»، فتلا معاذ [**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**] سورة آل عمران، الآية (٨)، (١).

و عن أنس، قال: كان النبي ﷺ يكثر من أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، قال: فقلنا يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا ؟ قال: فقال: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»(٢).

فإذا كان المصطفى ﷺ خاتم الأنبياء، وأفضلهم والذي غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يكثر من هذا الدعاء، فما يصنع غيره من البشر؟ خصوصا في هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن من كل لون وشكل، وكثر التقليب السريع فاللهمَّ رحماك بنا.

ومن الآثار المروية عن السلف الصالح في هذا الجانب المهم:

قول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: « اتقوا اللهَّ معشر القراء، وخذوا طريق مَنْ كان قبلكم، فواللهَّ لئن استقمتم لقد سبقتم سبقا بعيدا، ولئن تركتموه شمالا ويمينا ضللتم ضلالا بعيدا، أو قال: مبينا »(٣).

---

(١) رواه الترمذي في سننه، برقم ٣٥٢٢، ج ٥ ص ٥٣٨، ت/ أحمد شاكر، وحكم عليه الألباني بأنه (صحيح) برقم ٢٠٩١ في سلسلته الصحيحة.

(٢) سبق تخريجه، ص ٩٢.

(٣) أبي عبدالله المروزي، السنة، ج١ ص٣٠، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط الأولى ١٤٠٨هـ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج٩ ص٢١٨، لأبي نعيم الأصفهاني، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٩هـ.

وقال ابن القيم: «ولما كان التلقي عنه ﷺ على نوعين: نوع بواسطة، ونوع بغير واسطة، وكان التلقي بلا واسطة حظ أصحابه الذين حازوا قصبات السباق، واستولوا على الأمد فلا طمع لأحد من الأمة بعدهم في اللحاق، ولكن المبرز من اتبع صراطهم المستقيم، واقتفى منهاجهم القويم، والمتخلف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمال، فذلك المنقطع التائه في بيداء المهالك والضلال»(١).

وقال أبو العالية: «تعلموا الإسلام فإذا تعلمتوه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الإسلام يمينا ولا شمالا، وعليكم بسنة نبيكم والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تُلقي بين الناس العداوة والبغضاء»(٢).

ولأهمية الثبات على هذا الدين، والثبات في العقائد والأفكار أكد الله، سبحانه، على ذم التقليد، وأن أناساً قلدوا أباءهم وسادتهم من غير حجة ولا برهان ولا دليل فكان مأواهم النار وبئس القرار، يقول الله سبحانه في كتابه الكريم: [يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾]سورة الأحزاب، الآية (٦٦ – ٦٨).

أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل

---

(١) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج١ ص٥. ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ.

(٢) رفيع بن مهران أبو العالية الرياحي البصري، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ج١ ص ٥٦، دار طيبة – الرياض، ١٤٠٢، والإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، ج١ ص ٢٩٩، دار الراية الرياض، ط الثانية ١٤١٥هـ.

واعتقدنا أن عندهم شيئا، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء، والمراد بالسادة والكبراء: هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم[١].

وفي هذا زجر عن التقليد وأنه مذموم أياً كان، وخصوصا في الأفكار والعقائد، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه، والتنفير عنه، ولكن لمـَنْ يفهم معنى كلام الله ويقتدي به، وينصف من نفسه، لا لمـَنْ هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب.

ومثل هذا، من ذم تقليد الآباء والرؤساء في القرآن الكريم- كثير.

وقد احتجَّ العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم الكفر من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر؛ وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حُجَّة للمقلد.

وقال اللهَّ عز وجل: [وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ] سورة التوبة، الآية (١١٥).

فهذه الآيات وغيرها مما ورد في معناه ناعية على المقلدين ما هم فيه، وهي وإن كان تنزيلها في الكفار لكنه قد صح تأويلها في المقلدين، لاتحاد العلة، وقد تقرر في الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما[٢].

---

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن كثير، ج٦ ص٤٨٤، وانظر: فتح القدير، الشوكاني، ج٤ ص٣٠٦.

(٢) انظر: القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، الشوكاني، ج١ ص٧٢، تحقيق عبد الرحمن عبد الخالق، دار القلم الكويت ١٣٩٦هـ.

كأن يرى الإنسان رجلا يحسن اعتقاده فيه، فيفعل فعلا محتملا أن يكون مشروعا أو غير مشروع، فيقتدي به على الإطلاق، ويعتمد عليه في التعبد، ويجعله حُجَّة في دِين الله، فهذا هو الضلال بعينه، ما لم يتثبت بالسؤال والبحث عن حكم الفعل ممن هو أهل للفتوى(١).

وهذا هو الأجدر والواجب على كل إنسان أن يسأل قبل أن يقلد أحداً، حيث مكمن الخطر في التقليد هو الاتِّباع والسير على خطاه من غير سؤال، ولا تثبت عن فعله، وهو الذي زل فيه كثير من المتحمسين من الشباب، فقلدوا ممَّنْ يُسَمَّون بعلماء، فكانت أراؤهم وأفكارهم فيها من الانزلاق والإثم الكبير، والخروج عن فهم السلف الصالح.

ومن الثبات على دين الله عدم الوحشة بقلة السالكين، وأكثر الناس كما وصفهم الله، سبحانه: [وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ] سورة الأنعام، الآية (١١٦).

وقوله تعالى: [وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ] سورة الأعراف، الآية (١٠٢).

قال الحسن البصري: «سنتكم والله الذي لا إله إلا هو بينهما: بين الغالي والجافي فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي الذين لم يذهبوا مع أهل الأترف في أترافهم ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك إن شاء الله فكونوا»(٢).

---

(١) انظر: الاعتصام، الشاطبي، ج٢ص١٨، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

(٢) الدارمي - سنن الدارمي، ج١ ص٤٤، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.

وهكذا المؤمن المتمسك بدينه الثابت على مبادئه وأفكاره مهما وجد من تغير عند أناس، فإن ذلك لا يثنيه عن تمسكه بمبادئه، بل هو ثابت الجنان.

لقوله سبحانه: [يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ] سورة إبراهيم، الآية (٢٧).

وقوله تعالى لنبيه ﷺ: [وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا] سورة الإسراء، الآية (٧٤).

ودعاء إبراهيم – عليه السلام: [وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ] سورة إبراهيم، الآية (٣٥).

والهج وأكثر دائما من دعاء النبي ﷺ «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

❊❊❊

المبحث الرابع:
رد الحُكم إلى الله والرسول عند الاختلاف من خلال القرآن الكريم

من الأمور التي ينبغي التزامها لحماية الفكر من الانحراف هو: رد الحكم إلى الله والرسول عند الاختلاف في أي مسألة لا يكون للعقل فيها اجتهاد، بل يجعل الفيصل هو كتاب الله وسنته، ولذا أخبر سبحانه أنه في حالة التنازع والاختلاف يرد الحكم إلى الله، يقول الله، عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ سورة النساء، الآية (٥٩).

فهذه الآية تشير إلى أن في حالة التنازع والاختلاف والمجادلة في الحلال والحرام أو الشرائع، فإنه يرد ذلك إلى أمر الله – سبحانه – فيما يأمر بالوحي، وإلى أمر الرسول فيما يخبر عن الوحي، وبعد موت النبي ﷺ فإنه يُرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام(١).

إذا المنهج الشرعي عند الاختلاف هو: الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففيهما النجاة، وطاعة الله سبحانه هي: التمسك بكتابه كله، والتي منها النهي عن الاختلاف والتفرق في الدين، وطاعة رسوله بعد وفاته هي: التمسك بسنته المطهرة، ولا يقال: أن الرد إلى القياس أو المذهب أو المرجع أو فلان هو من الرد

---

(١) انظر: بحر العلوم، السمرقندي، ج١ ص٣٣٨، دار الفكر بيروت، تحقيق د محمود مطرجي، وانظر: فتح القدير، الشوكاني، ج١ ص٥٥٦، دار ابن كثير دمشق، بيروت، ط الأولى ١٤١٤هـ.

إلى الله ورسوله؛ لدلالة كتاب الله وسنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - كما تقدم تقريره؛ لأن الله سبحانه، إنما ردنا إلى كتابه وسنة رسوله، ولم يردنا إلى قياس عقولنا وآرائنا فقط، بل قال تعالى لنبيه ﷺ: [وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ] سورة المائدة، الآية (٤٩).

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥ ﴾ سورة النساء، الآية (٦٥).

وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا في شريج من الحرة، فقال النبي ﷺ: «**اسق يا زُبير ثم أرسل الماء إلى جارك**»، فقال الأنصاري: يا رسولَ الله، أن كان ابَن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «**اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك**»، واستوفى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك:

[فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ..] (١)(٢).

ورد الحكم إلى الله ضابط مهم في حفظ الفكر وحمايته من الانحراف، وذلك أن الإنسان إذا اختلف مع آخر في مسألة من المسائل، أو فرع من فروع الدين فإنه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٤٥٨٥، باب/ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ج٦ ص٤٦، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٢٩، باب/ وجوب اتِّباع ﷺ، ج٤ ص١٨٢٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٩، ط الثانية دار طيبة، ت سامي سلامة ١٤٢٠هـ.

لا يجعل لهواه ولا لعقله هو الحكم والفيصل في الموضوع، بل يجعل شرع الله، سبحانه، كتاب الله وسنة نبيه ﷺ هو المرجع للاختلاف، وبذلك يكون المرء قد حفظ فكره وحماه من أي تداخلات أو أهواء شخصية.

وحسب بحثي المتواضع فإن رد الحُكم يقصد به ثلاثة أمور:

أولا: التحاكم إلى الكتاب والسنة مطلقاً وعدم تركهما في أي حكم أو مسألة:

فالأحكام والمسائل التي تعرض للمرء، والمستجدات العصرية والتي تترتب عليها مصالح ومفاسد لابد أن ترجع للكتاب والسنة في بيان حكمها، وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ هما المرجعان الأساسيان، أخرج الحاكم عن أبي هريرة، قال: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ كِتَابَ اللهِ وَسَنَتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ**»(١).

والمتأمل في واقع الأمة الإسلامية اليوم يدرك أن كثيراً من الخلافات واتساعها بين عامة المسلمين وخاصتهم وما حصل من تراشقات واتهامات، كل ذلك بسبب عدم رد الأحكام إلى الكتاب والسنة -ونعني هنا بالمسائل العظيمة أو أصول الدين - أما المسائل الاجتهادية الفقهية، فهذا يقع فيها الخلاف بين أهل العلم، وهو من الخلاف السائغ الذي يجب أن تتسع له صدور الناس، لكن المؤسف في هذا الأمر التعامل مع كثير من المسائل الفرعية على أنها أصول الدين مما أَثَّر على فكر كثير من شبابنا، فقام بتخطئة علماء أو رشق اتهامات في النيات بسبب مسائل فرعية، ومَكْمَن الخطر إذا سارت وانتشرت هذه الأفكار الخطيرة

(١) سبق تخريجه، ص ٨٩.

في أوساط الشباب أن يقع التكفير، أو التبديع، أو تسمية علماء السلطة، بحجة أنهم متساهلون في أحكام الشريعة، و الصحابة الكرام لِعُلُوّ شأنهم ومكانتهم اختلفوا في المسائل الاجتهادية الفقهية، فغيرهم أولى بالوقوع في الاختلاف، ونحن لا تضيق صدورنا باختلاف المجتهدين ولا نحسبه تجزئة للدين ؛وإنما نراه من مظاهر فهم الفقهاء الراسخين في العلم لكن تضيق صدورنا بما يرتبه بعض الجهال على اختلاف أولئك الفقهاء من تعصب وخلاف ذميم، ومن تنزيلهم لأولئك الفقهاء العظام منزلة التقديس والتنزيه عن الخطأ، وجعل أقوالهم حاكمة على القرآن والسنة مما يقع فيه المتعصبون الجاهلون، وتعجب من أولئك الذين يَدَّعُون عدم التقليد ويسوغون لأنفسهم الاجتهاد مع جهلهم بفهم آية من كتاب الله، ويسوغون لأنفسهم الطعن بالأئمة المجتهدين بحجة اتِّباعهم للكتاب والسنة.

ثانيا: عدم الترخُّص في الأحكام بعد بيان الحق من خلال الكتاب والسنة:

عندما نتأمل قول الله، عز وجل: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١ ﴾ سورة المؤمنون، الآية (٧١).

والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك. [لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ] أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: [وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ] سورة الزخرف، الآية (٣١).

ثم قال سبحانه: [أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ] سورة الزخرف، الآية (٣٢).

وقال تعالى: [قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾] سورة الإسراء، الآية (١٠٠)، وقال:[أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا]، سورة النساء، الآية (٥٣).

ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره لخلقه تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه(١).

من هذه التفاسير يتضح أن عقل الإنسان لا يمكن أن يدرك حكمة الله، سبحانه، في جعل هذا الشيء حراما أو حلالاً، إنما الواجب التسليم والانقياد وعدم جعل الهوى قائداً له في تصرفاته واختياراته، وهذا يظهر عندما يبحث الإنسان عن قول ما، ويتضح له أنه ممنوع أو مُحَرَّم بدليل نص شرعي، لا شك فيه ولا ريب، عندها يقف ويبحث عن قول ضعيف يجيز هذا العمل بحجة أخذ الرخصة، أو يتتبع زلات علماء وقعوا في مسائل وتراجعوا عنها وبينوها في كتبهم فالإمام الشافعي – رحمه الله – له قول في القديم والجديد، «ويقصد بالترخُّص: هو الأخذ من أقوال أهل العلم عند الاختلاف بما خف على النفس واشتهته دون اعتبار للراجح من المرجوح من الأقوال»(٢).

ولذا قال الإمام الذهبي(٣): «ومن تتبع رخص المذاهب، وزلات

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٥ ص٤٨٣.

(٢) الإسنوي الشافعي، التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، ج ١ ص٧١، مؤسسة الرسالة – بيروت ط ١ عام ١٤٠٠ هـ.

(٣) الذهبي (٦٧٣ – ٧٤٨ هـ)، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، حافظ، مؤرخ، علامة، محقق. تركمانيّ الأصل، مولده ووفاته في دمشق، رحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان، وكف بصره سنة ٧٤١ هـ، تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة مصنف. [الأعلام ج٥ ص٣٢٦].

المجتهدين، فقد رَقَّ دينه، كما قال الأوزاعي، أو غيره: مَنْ أخذ بقول المكيين في المتعة، والكوفيين في النبيذ، والمدنيين في الغناء، والشاميين في عصمة الخلفاء، فقد جمع الشر، وكذا من أخذ في البيوع الربوية بمن يتحيل عليها، وفي الطلاق ونكاح التحليل بمن توسع فيه، وشبه ذلك، فقد تعرض للانحلال، فنسأل الله العافية والتوفيق »(١).

وقال الشاطبي: «إن الترخُّص إذا أُخِذَ به في موارده على الإطلاق؛ كان ذريعة إلى انحلال عزائم المكلفين في التعبد على الإطلاق، فإذا أخذ بالعزيمة؛ كان حريا بالثبات في التعبد والأخذ بالحزم فيه، بيان الأول أن «الخير عادة، والشر لجاجة»، وهذا مُشَاهد محسوس، لا يحتاج إلى إقامة دليل، والمتعود لأمر يسهل عليه ذلك الأمر ما لا يسهل على غيره؛ كان خفيفا في نفسه أو شديدا، فإذا اعتاد الترخص؛ صارت كل عزيمة في يده كالشاقة الحرجة، وإذا صارت كذلك؛ لم يقم بها حق قيامها، وطلب الطريق إلى الخروج منها، وهذا ظاهر، وقد وقع هذا المتوقع في أصول كلية، وفروع جزئية، كمسألة الأخذ بالهوى في اختلاف أقوال العلماء، ومسألة إطلاق القول بالجواز عند اختلافهم بالمنع والجواز»(٢).

نقول ذلك لمّا نرى من بعض شباب المسلمين، والذين اندمجوا في البيئة الغربية، والذي أدى عند بعضهم إلى ذوبان الشخصية الإسلامية، وتجد البعض في ميوعة شديدة في تلقي الأحكام الشرعية، وميل ظاهر إلى البحث عن الرخص بدون فقه ولا بصيرة، بل سنده ومرجعه ما وافق هواه، أيًّا كان هذا القول -ولو

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ج٨ ص٩٠، مؤسسة الرسالة ط الثالثة ١٤٠٥هـ.

(٢) الشاطبي، الموافقات ج١ ص ٥٠٧، دار ابن عفان، ط الأولى ١٤١٧ه. تحقيق / مشهور آل سلمان.

من المذاهب المنحرفة أو أصحاب الفكر المنحل - وهذا مكمن الخطر لشبابنا، ومما يؤسف له هذا الخلل الكبير في الفكر عند بعضهم فتراه لا يعتز بدينه، ولا يظهر شعائره بحُجَّة عدم لفت الانتباه، فتراه ينزلق من مستنقع إلى مستنقع آخر إلى أن يصل به الأمر -عند البعض منهم -إلى محاكاة الغربيين في أفعالهم، وفي تصرفاتهم، وعاداتهم، وإلى الله المشتكى.

ثالثا: أخذ الحكم بعد البيان دون تنطع وغلو وتكلف:

تضافرت أدلة الشريعة على ذم الغلو، والتنطع في الدين ؛ولذا قال سبحانه وتعالى زاجراً النصارى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ سورة المائدة، الآية (٧٧).

قال ابن كثير: «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدون الله، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممَّنْ زعم أنه على دينه، فادَّعُوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقا أو باطلا أو ضلالا أو رشادا، أو صحيحا أو كذبا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة التوبة، الآية (٣١)»[1].

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج٢ ص ٤٧٧.

والغلو: هو الإفراط وتجاوز الحد في الأمر - فإذا كان في الدين، فهو تجاوز حد الوحي المنزل إلى ما تهوى الأنفس، كجعل الأنبياء والصالحين أربابا ينفعون ويضرون واتخاذهم لأجل ذلك آلهة يعبدون، فيُدْعَوْن من دون الله تعالى أو مع الله تعالى، سواء أُطلق عليهم لقُب الربّ والإلهَ، كما فعلت النصارى، أم لا، وكشرع عبادات لم يأذن بها الله، وتحريم ما لم يحرم الله ؛ كالطيبات التي حرمها القساوسة والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم ؛ مبالغة في التنسك، سواء كان ذلك لوجه الله، أم كان رياء وسمعة.

وأما الضلال الثاني: الذي ختمت به الآية، فقد فُسِّر بإعراضهم عن الإسلام، كما فُسِّر الضلال الأول بما كان قبل الإسلام، فالإسلام هو سواء السبيل، أي: وسطه الذي لا غلو فيه، ولا تفريط، لتحتيمه الاتباع، وتحريمه الابتداع والتقليد.

وثبت في السنة النبوية النهي عن الغلو والتنطع في الدين من ذلك:

-عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»، قالها ثلاثا(١).

-عن أبي موسى، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره، قال: «**بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا**»(٢).

-حدثنا يحيى، عن ابن عباس، قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة، وهو

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب/ هلك المتنطعون، ج٤ ص ٢٠٥٥، دار إحياء التراث العربي بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب/ الأمر بالتيسير وترك التنفير، ج٣ ص١٣٥٨.

واقف على راحلته: «هَاتِ الْقُطْ لِي » فلقطتُ له حصيات هن حصى الخذف، فوضعهن في يده، فقال: «بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ مرتين»، وقال بيده - فأشار يحيى أنه رفعها – وقال: « إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ »[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والتشديد: تارة يكون باتخاذ ما ليس بواجب، ولا مستحب، بمنزلة الواجب والمستحب في العبادات، وتارة باتخاذ ما ليس بمحرم، ولا مكروه بمنزلة المحرم والمكروه، في الطيبات، وعلل ذلك بأن الذين شددوا على أنفسهم من النصارى، شدد الله عليهم لذلك، حتى آل الأمرُ إلى ما هم عليه من الرهبانية المبتدعة، وفي هذا تنبيه على كراهة النبي ﷺ لمثل ما عليه النصارى من الرهبانية، المبتدعة، وإن كان كثير من عبّادنا، قد وقعوا في بعض ذلك متأولين معذورين، أو غير متأولين»[٢].

فنهى النبي- صلى الله عليه وآله وسلم - عن التشديد في الدين، وذلك بالزيادة على المشروع، وأخبر أن تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه، إما بالقدر، وإما بالشرع، فالتشديد بالشرع: كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به، وبالقدر كفعل أهل الوسواس، فإنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم القدر، حتى استحكم ذلك وصار صفة لازمة لهم[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم ٣٢٤٨، باب/ مسند عبدالله بن العباس بن عبد المطلب، ج٥ ص ٢٩٨، مؤسسة الرسالة ط الأولى ١٤٢١ هـ، ت/ شعيب الأرنؤوط، وأخرجه النسائي في سننه برقم ٣٠٥٧، باب/ التقاط الحصى، ج٥ ص٢٦٨، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط٢ عام ١٤٠٦ هـ، ت/ عبد الفتاح أبو غدة، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٣ ص٢٧٨، برقم ١٢٨٣، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض، ط الأولى ١٤١٥ هـ.

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج١ ص ٣٢٢، دار عالم الكتب بيروت ط السابعة ١٤١٩هـ.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم الجوزية، ج١ ص ١٣٢، مكتبة المعارف الرياض، تحقيق محمد حامد الفقي.

ولذا أكد النبي ﷺ من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(١).

قال ابن حجر: «والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب. وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدِّين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلي الليل كله، ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة»(٢).

وعندما نتتبع خطورة الفكر في هذا الموضوع ونتأمل خطر الفكر في هذا المنزلق، ومَنْ يستقرئ تاريخ الفرق الضالة التي نشأت في صدر الإسلام يجد أن الغلو كان السبب الرئيس في ظهورها ونشأتها، فالخوارج هم أول فرقة شقت عصا المسلمين ومرقت من جماعتهم، وكما وصفهم النبي ﷺ «**أنهم يمرقون من**

---

(١) صحيح البخاري، باب الدين يسر، ج١ ص ١٦، رقم ٣٩، دار طوق النجاة، ط١ ١٤٢٢ ه، ت/ محمد زهير بن ناصر الناصر.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١ ص ٩٤، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩ هـ.

الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1]، وكان ضلالهم بسبب غلوهم في آيات الوعيد، فآل بهم إلى تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم، ومثلهم الشيعة الإمامية نشأت بعد الخوارج وكان ضلالهم من جهة غلوهم في محبة آل بيت النبي ﷺ حتى آل بهم الأمر إلى جعل أئمتهم في مقام النبوة والتقديس بل إلى مرتبة الألوهية، والعياذ بالله.

❊❊❊

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم ١٠٦٦، باب / التحريض على قتل الخوارج، ج ٢ ص ٧٤٧.

المبحث الخامس:
التربية الإيمانية والدعاء بالثبات

مما لا يخفى على كل مسلم ما لأهمية التربية الإيمانية من حفظ للأفكار وترسيخ العقيدة السليمة في نفوس الناس، ومن خلال التربية تنتقل موروثات كل مجتمع من جيل إلى جيل، والتربية جزء لا يتجزأ من ثقافة المجتمع، وأداة لتحقيق النجاح والصلاح في سلوك الناس وعاداتهم، والإيمان بالله، سبحانه وتعالى رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا، والإيمان برسله، وكتبه، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، يبعث في النفس الأمن والطمأنينة وعند التأمل في كتاب الله سبحانه نجد وصف المؤمن بأنه يعيش في أمن وأمان، وأما الكافر فعيشه الضنك وعدم الراحة، وإن تظاهر بالأنس فقلبه ضيقّ حرج.

معنى التربية في اللغة:

لفظة التربية: مصدر كلمة (ربّى) بالتضعيف، فيقال: ربّاه تربية، أي: أحسن القيام عليه، ووَلِيه حتى يفارق الطفولة، كان ابنه أو لم يكن، وأما الربّ فعلى ثلاثة أقسام: يكون الرب بمعنى المالك، ويكون الرب بمعنى السيد المطاع، ويكون الرب بمعنى المصلح، ورَبّ الشيءَ: إذا أصلحه [١].

وعلى هذا فأقصد بالتربية هنا أي: التربية الإيمانية القرآنية، وهو ما يمتاز به القرآن الكريم من خصائص عالية موصلة لغايات سامية، إذ يأخذ بلبّ المرء

(١) لسان العرب ج١ ص٤٠١.

فيجعله يرتقي من حال إلى أحسن، وإلى أفضل بل وإلى أعلى وأسمى في العمل والمعتقد والفكر ونحو ذلك، وكل هذا يدل عليه معنى التربية، و التربية إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام(١).

بمعنى أن الفرد يتطور في حالاته من مرحلة إلى أخرى حتى يصل إلى القمة مطبقا كل تعاليم القرآن الكريم الذي فيه سعادة المرء في دينه ودنياه.

مفهوم التربية الإيمانية:

هو ربط الولد منذ تعلقه بأصول الإيمان، وتعويده منذ تفهمه لأركان الإسلام، وتعليمه من حين تميزه مبادئ الشريعة الغَرَّاء.

وتعد التربية الإيمانية من أهم الأمور التي تحمي الفكر من الانحراف، وكل دعوة لا تهتم بأمر التوحيد وتربي أبناءها عليه، فهي دعوة على غير هدى المرسلين.

وإن مسؤولية التربية الإيمانية لدى المربين والآباء والأمهات، هي مسؤولية مهمة وخطيرة، لكونها منبع الفضائل ومبعث الكماليات، وبدون هذه التربية لا ينهض الولد بمسؤولية، ولا يتصف بأمانة، ولا يعرف غاية، ولا يتخلق بمعنى الإنسانية الفاضلة، ولا يعمل لمثل أعلى ولا لهدف نبيل، بل يعيش عيشة البهائم ليس له هَمٌّ سوى أن يسدّ جوعه، ويشبع غريزته، وينطلق وراء الشهوات والملذات، ويصاحب الأشقياء والمجرمين، وعندئذ يكون من الزمرة الكافرة والفئة الإباحية الضالة(٢).

---

(١) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المناوي، ج١ ص٩٥ _ عالم الكتب بمصر، ط الأولى ١٤١٠هـ.

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصر علوان، ج١ ص١٧ و ص ١٢٩، دار السلام القاهرة.

والتربية الإيمانية لابد أن يُرَاعَى فيها المعنى الشرعي للإيمان وشموله لكافة جوانب الحياة، وعدم التركيز على مجرد أداء الشعائر بل الاعتناء بالأصل وهو أعمال القلوب.

فالواجب زرع الوازع الديني في نفوس الأبناء والشباب، وكلٌ له دوره المنوط في التوجيه: الوالدين، والمربي، والمعلم، والخطيب، ومن ثَمّ مساعدتهم على حسن اختيار الأصدقاء؛ وذلك بتهيئة الأجواء المناسبة لاختيار الصحبة الصالحة من الجوار الصالح والمدرسة الصالحة، وإعطائهم مناعة تقيهم من مصاحبة الأشرار وأصحاب الأفكار المنحرفة.

وتربية المسلم على العقيدة الصحيحة، وهي عقيدة السلف التي مضى عليها سلف الأمة- رضي الله عنهم - ومقياس العقيدة هي: السير على عقيدة الصحابة -رضي الله عنهم - لقوله، سبحانه:[وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] سورة الأنعام، الآية (١٥٣).

أي: لا تسلكوا طريقًا سواه، ولا تركبوا منهجًا غيره، ولا تبغوا دِينًا خلافه، من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من المِلل، فإنها بدع وضلالات فيشتّت بكم، إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها [(١)].

عن جابر بن عبد الله، قال: كنا عند النبي ﷺ فخط خطا، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط، فقال: « هَذَا سَبِيلُ

(١) انظر: تفسير الطبري، الطبري، ج١٢ ص٢٢٨، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٣ ص٣٦٧.

اللهَّ »، ثم تلا هذه الآية: [وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ] سورة الأنعام، الآية (١٥٣) (١).

وكون القرآن الكريم كتاب تربية حقيقة مسلّمة لا ينكرها إلا من ختم الله على قلبه، فهو كتاب تربية وتهذيب وتطوير وتجديد لكل أمور المرء في حياته إن أراد الدنيا أو أراد الآخرة، إذ قال الله تعالى عن النبي الأمي ﷺ [يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ] سورة آل عمران، الآية (١٦٤).

ومن الآيات العظيمة التي فيها الحث على تربية الأبناء التربية الصالحة الحسنة قول الله، عز وجل: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ سورة آل عمران، الآيات (٣٥ – ٣٧).

في قوله تعالى: [وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا] أي: حتى استقامت على الطاعة، وآثرت رضاه – سبحانه- في جميع الأوقات، وهي عبارة عن حسن النشأة والجودة في خَلْقٍ وخُلُق، فأنشأها على الطاعة والعبادة، قال ابن عباس: لما بَلَغَتْ تسع سنين صامتْ النهار وقامتْ الليل (٢).

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، باب اتّباع سنة رسول الله ﷺ برقم ١١ ج١ ص٦، أبو عبد الله محمد القزويني – سنن ابن ماجه – دار إحياء الكتب العربية – ت محمد فؤاد عبد الباقي – وصححه الألباني في صحيح وضعيف ابن ماجه باب ٨٣، ج١ ص٨٣.

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ج١ ص٢٣٨، ط٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ت / إبراهيم البسيوني، وانظر: البحر المحيط، الأندلسي، ج ٣ ص١٢١، طباعة دار الفكر – بيروت، عام ١٤٢٠ هـ، ت/ صدقي محمد جميل.

وتعتبر القدوة الحسنة من أهم أساليب التربية في الإسلام، وهي أساس التعليم ونموه، والقدوة عامل كبير في إصلاح الفرد أو إفساده، كما لها من تأثير في طرق اكتشاف الفضائل والمثل الحي للسلوك الواعي الجيد في الحياة، لهذا فقد اتخذها الدين الإسلامي وسيلة من وسائل الرقي بالمجتمعات المسلمة إلى مراتب الكمال السلوكي، فقد أشارت آيات عديدة إلى أهمية القدوة الحسنة في التربية.

قال تعالى: [لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا] سورة الأحزاب، الآية (٢١).

في هذه الآية الكريمة: أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ؛ ولهذا أُمِرَ الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين (١).

و هذه الآية توضح مدى أهمية القدوة الحسنة في التربية ونجاحها إذا عملنا بها وطبقناها.

والتربية الإيمانية تستلزم التربية على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وما يكون من الإنسان في معاملته مع الناس.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة لقمان، الآيات (١٧ – ١٩).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٦ ص٣٩١..

وصايا لقمان منهج في التربية على أكمل شيء، فهو يجمع بين حق الله وحق عباده، بل حتى حظ النفس ؛ فقد أمره بما فيه قوام النفس، واستقامتها حتى في أخلاقها مع الناس، ولذلك لا تصعر خدك للناس كبرياء وخيلاء، ولا تمشِ في الأرض مرحاً، فالإنسان إذا أراد أن يربي ولده يربيه على مكارم الأخلاق، فكمال العبد في كمال خلقه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»(١).

يُعَوِّدُه الصدق في الحديث وينهاه عن الكذب، يُعَوِّدُه حفظ اللسان وينهاه عن أن يرتع لسانُه بأعراض المسلمين بالغيبة والنميمة والسب والشتم واللعن، يُعلمه حب المسلمين فلا يغرس في قلبه الحقد عليهم، ولا يغرس في قلبه الحسد أو الانتقام، ولا يغرس في قلبه البغضاء؛ وإنما يغرس في قلبه حب المؤمنين صغاراً وكباراً، وأنهم إخوة له، وأخطر شيء على الفكر من ذكر خلافات لأناس مضوا وَوُرُوا في التراب، من خير الأجيال في مسائل فرعية لا يحاسب عليها العبد بل تذكر لأجل مصالح تصبُّ في الفكر والمذهب المنحرف، أو قُلْ لأجل تعبئة الحقد والأخذ بالثأر، والعياذ بالله.

وعندما نتأمل دعوة النبي ﷺ نرى أنه بدأ بأعظم الأساس وهي التربية العقدية، حيث مكث في مكة ثلاث عشرة سنة، كانت طيلة هذه الفترة دعوته

---

(١) أخرجه أبي داود في سننه، رقم ٤٦٨٢، باب/ الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ج٤ ص٢٢٠، طباعة المكتبة العصرية – صيدا – بيروت، ت/ محمد محي الدين عبد الحميد، وأخرجه الدارمي في سننه، رقم ٢٨٣٤، باب/ في حسن الخلق، ج٣ ص١٨٤٠، ط ١ دار المغني للنشر والتوزيع ١٤١٢ هـ، ت/ حسين سليم أسد الداراني، وحكم عليه الألباني بأنه (حسن صحيح) في المشكاة، رقم ٥١٠١، باب/ الفصل الثالث، ج٣ ص١٤١١.

قائمة على التعلق بالله، سبحانه، ومعرفته من ذلك، مثلا تربيته ﷺللناشئة وللغلمان على العقيدة الصحيحة، عن ابن عباس، قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَّ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَّ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَّ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهَّ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهَّ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهَّ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»(١).

عندما نتأمل الكلمات والتوجيه من الحبيب المصطفى ﷺ نجدها كلمات تربط المرء بالله، وتجعل قلبه متعلقا به دون سواه.

عن زيد بن خالد الجهني، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلمَّا انصرف أقبل على الناس فقال: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»(٢).

فاستغل الرسول ﷺ هذا الموقف وهو نزول المطر ليرسخ العقيدة، ويبعد

---

(١) رواه الترمذي في سننه، رقم ٢٥١٦، ج٤ ص٦٦٧، طباعة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢ عام ١٣٩٥هـ، ت/ أحمد محمد شاطر، وحكم عليه الألباني بصحته في سلسلته الصحيحة، باب/ ٢٣٨٣، ج٥ ص ٤٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٨٤٦، باب/ يستقبل الإمام الناس إذا سلم، ج١ ص١٦٩، طباعة دار طوق النجاة، ط١ عام ١٤٢٢هـ، ت/ محمد زهير بن ناصر الناصر، وأخرجه مسلم في صحيحه ، رقم ١٢٥، باب/ بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، ج١ ص٨٣، طباعة دار إحياء التراث، بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

الناس عن نوع من أنواع الكفر، وهو نسبة النعمة إلى غير المتفضل بها، والاعتقاد بأن الكوكب له تأثير على هطول الأمطار، حيث أن نزول المطر من مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله.

يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ سورة لقمان، الآية (٣٤).

وبذلك تنظر التربية الإسلامية إلى الإنسان ككل متكامل تشمل جميع جوانبه الشخصية، فهي تربي فيه الروح والعقل والجسم، وكل جانب من هذه الجوانب تؤثر في الآخر.

وبهذه التربية الإيمانية المبنية على الأساس الصحيح والمنهج السليم نجد أن الإنسان يصبح لديه أمن فكري يتحقق بهذه التربية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وينبغي ربط قلب الولد والشاب بالله، عز وجل؛ لتكون غايته مرضاة الله، سبحانه، والفوز بثوابه، وأن لا يتعلق بأشخاص أو مرجعيات أو أحزاب يسعى لرضاهم بل يجعل مرضاة الله هي أساسه فيُرضي الله وإن أسخط الناس لقوله سبحانه: [فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ] سورة الأنبياء، الآية (٩٤).

وهذا الربط يمكن أن يبثه الآباء والمربون، والمعلمون، والخطباء ؛ وتبثه الأمهات بالقدوة الطيبة، والكلمة المسؤولة، والمتابعة الحكيمة، والتوجيه الحسن، وتهيئة البيئة المعينة على الخير، حتى إذا كبر الشاب المؤمن تعهد نفسه: فيتوب عن

خطئه إن أخطأ ويلتزم جادة الصواب، ويبتعد عن الدنايا والأفكار السيئة، فتزكو نفسه ويرقى بها إلى مصافٍّ نفوس المهتدين بعقيدة صلبة وعبادة خاشعة ونفسية مستقرة، وعقل متفتح واعٍ، وجسم قوي البنية، فيحيا بالإسلام وللإسلام، يستسهل الصعاب، ويستعذب المر، ويتفلت من جواذب الدنيا متطلعاً إلى ما أعدَّه الله للمؤمنين المستقيمين على شريعته.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة فصلت، الآية (٣٠).

من التربية الإيمانية الأمر بالصلاة:

قال تعالى: [وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ] سورة طه، الآية (١٣٢).

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١).

فمن حق الولد على والديه الأمر بالصلاة، أن يأمراه بالصلاة في مواقيتها، فيجب على الوالد وعلى الوالدة أن يعلما الولد كيفية الوضوء وكيفية الطهارة، واستقبال القبلة، وصفة الصلاة، والهدي الذي ينبغي أن تؤدي به هذه العبادة.

لذا هل من خلق الإسلام أن يقوم شخص بتفجير نفسه في وقت صلاة

---

(١) رواه أبو داود في سننه، رقم ٤٩٥، باب/ متى يؤمر الغلام بالصلاة، ج١ ص١٣٣، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ت/ محمد محي الدين عبد الحميد، وحكم عليه الألباني بأنه (حسن صحيح)، رقم ٢٩٨، باب/ حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ج٢ ص٧، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، طباعة المكتب الإسلامي – بيروت، ط ٢ عام ١٤٠٥هـ، إشراف: زهير الشاويش.

الجمعة؟ هل من خلق الإسلام التشبيه بزي النساء ومحاولة دخول المسجد للتفجير؟ أين أداء الصلاة؟ أين الحرمات؟ أين مصير هذه الدماء؟ إلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تتمثل أهمية التربية الإيمانية فيما يلي:

١. أنها كفيلة بتصحيح النيات، وترسيخ الإخلاص، وإيجاد الضمانات لعدم حصول الانحرافات والأمراض القلبية، مثل: الرياء، وحب الرئاسة، وغيرها.

٢. التربية الإيمانية مهمة للفرد المسلم حتى تحميه من هذه الانحرافات والأمراض.

٣. التربية الإيمانية مهمة حتى يذوق المسلم حلاوة الإيمان، وحتى لا يكون هذا الإيمان صوريا في قلبه وضميره، وحتى يعمر الإيمان قلب المسلم بحيث يصبح هذا الإيمان في القلب مصدر الدفع، والمحرك الدائم لكل الأعمال الصالحة.

٤. التربية الإيمانية مهمة لإيجاد الأوساط الإيمانية التي من خلالها يتربى الناس، ويتحولون إلى لبنات صالحة في بناء المجتمع المسلم الكبير.

٥. التربية الإيمانية مهمة لضمان وحفظ الفكر من الشبهات والشهوات، فالتربية التي تؤسَّس على القرآن والسنة النبوية، واحتواء المحضن التربوي المناسب من خلال الاتصال بالعلماء الربانيين أصحاب الفكر السليم، تكون لهم بتوفيق الله المُوَصِّل إلى النصر، وإلا فإن الإخفاق والإحباط مصير كل عمل لا يلتزم بهذه الإيمانيات.

فإذا قامت التربية الإيمانية بواجبها في كلّ مرحلة، فإن أسس النهج الإيماني للتفكير تكون قد استقرّت في الفطرة، وأصبحت قادرة على توجيه التفاعل بين مختلف العوامل المؤثرة في النهج، حتى ينطلق النهج الإيماني على صراط مستقيم ممتدّ مع الحياة.

ولذا نجد، للأسف، مَنْ أهمل هذا الجانب العظيم، جانب التربية الإيمانية من المنحرفين فكريا الذين يربون أتباعهم على التربية الجهادية المزعومة، فتجد الطغيان على أقوالهم وأفكارهم، بل وأناشيدهم ترتكز على ذكر الدماء والدفع بها باسم الدين، ولكن القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ يبين هذه الوجهة وهي الدعوة إلى الدِّين بالحكمة والموعظة الحسنة وبيان سماحة الإسلام.

لقوله سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ سورة النحل، الآية (١٢٥).

لذا لابد للفكر من عقيدة وأساس يحمي هذا العقل.

وبعد أن يقوم الإنسان بالحرص على التربية الإيمانية لنفسه أولا ثم لمن تحت يده، فإنه حريٌّ به دائما أن يكون مشفقا خائفا، ولذا يكثر من الدعاء، بأن يثبته الله في هذه الحياة بالقول الثابت، والدعاء من عوامل الثبات للفكر والعقل من الزيغ والإنحراف.

والمراد بالدعاء أن يرغب العبد إلى الله ويطلب منه العناية والتوفيق ويستمد منه المعونة في جميع ما يحتاج إليه من أموره، والعبد محتاج إلى دعاء الله تعالى في كل وقت وحين، لأنه مفتقر إليه لا يستغني عنه طرفة عين، ولذا كان ﷺ يقول في

دعائه: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، يقول: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»(٢).

ولذا كان من دعوة المؤمنين الراسخين في العلم يقولون: [**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**] سورة آل عمران، الآية (٨).

قال ابن كثير: «أي لا تَمِلْهَا عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلها كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم»(٣).

عن النواس بن سمعان الكلابي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ**»، وكان

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، برقم ٩١٠، باب/ أبو بكرة، ج٢ ص٢٠٠، طباعة دار هجر مصر، ط ١ عام ١٤١٩، ت/ د.محمد بن عبد المحسن التركي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، برقم ٣٣٨٨، باب/ حرف الدال، ج١ ص٦٣٨، طباعة المكتب الإسلامي.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم ١٧ – ٢٦٥٤، باب/ تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، ج٤ ص٢٠٤٥.

(٣) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم، ج٢ ص١٣.

رسول الله ﷺ يقول: «**يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**» قَالَ: «**وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ، يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١).

فالتوفيق بيد الله سبحانه يوفق من يشاء إلى الثبات والهدى بفضله ورحمته ويخذل من يشاء له الخذلان بعدله وحكمته، وأخطر شيء على الإنسان هو التحول في الفكر، فبعد أن كانت أفكاره نيرة واضحة، تتحول تلك الأفكار، والعياذ بالله، إلى أفكار خطيرة، فيها من التطرف والغلو والدعوة إلى سفك الدماء المعصومة، أو التحول من بعد الإسلام النقي إلى الردة والنكوص، والعياذ بالله، وواقعنا المعاصر يرى تلك التحولات والأمثلة الغريبة مما يستلزم علينا كمربين، ودعاة أن نحث على الإكثار من دعاء الله، سبحانه، بأن يُثَبِّت قلوبنا على الحق والهدى، فلا يأمن الإنسان على نفسه طرفة عين، ولذا فإن من علامات الساعة التي أخبر بها النبي ﷺ في آخر الزمان، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه -أن رسول الله ﷺ قال: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»(٢).

نسأل الله الثبات على دينه وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

❊❊❊

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ١٩٩، باب/ فيما أنكرت الجهمية، ج١ ص٧٢، طباعة دار إحياء الكتب العربية، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، رقم ٥٧٤٧، باب/ حرف الميم، ج٢ ص١٠٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم ١٨٦، باب/ الحث على المبادرة بالأعمال، ج١ ص١١٠، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

الفصل الثالث:
آثار حماية الفكر

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آثار حماية الفكر على الفرد.

المبحث الثاني: آثار حماية الفكر على المجتمع.

المبحث الأول:
آثار حماية الفكر على الفرد

لحماية الفكر أثر كبير على الفرد والمجتمع، وفي هذه المبحث نتعرف على هذه الآثار.

تعريف الآثار في اللغة والاصطلاح:

الآثار: جمع أَثَر و(الْأَثْرُ) أثر الشي: بقيته

والأثر: له ثلاثة معانٍ: الأول: بمعنى: النتيجة، وهو الحاصل من الشيء، والثاني: بمعنى العلامة، والثالث: بمعنى الجزء(١).

والذي يعنينا في التعريف هو النتيجة وهو الحاصل من الشيء.

وأعظم الآثار الناتجة لحماية الفكر على الفرد هو وجود الأمن، وهو أعظم النعم، فنعمة الأمن لا تعدلها أي نعمة.

والأمن يعني: السكينة والاستقرار النفسي والاطمئنان القلبي، واختفاء مشاعر الخوف من النفس البشرية.

فالمقصود بالأمن في اللغة: سكون القلب واطمئنانه، قال ابن فارس: (الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما: الأمانة التي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب (٢).

---

(١) انظر الجرجاني، التعريفات ج١ ص٩.

(٢) انظر ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ١ ص ١٣.

أما في الاصطلاح: فتعددت التعريفات باختلاف المنظور الذي ينظر إليه الباحثون.

قال الجرجاني في التعريفات: «هو عدم توقع مكروه في الزمن الآتي»[١].

وقيل الأمن بالنظر إلى مقاصد الشرع أنه: الحال التي يكون فيها الإنسان مطمئنا في نفسه، مستقرا في وطنه، سالما من كل ما ينتقص دينه أو عقله، أو عرضه، أو ماله. وهناك أنواع عديدة للأمن منها: الأمن النفسي، الأمن الثقافي، الأمن الفكري، الأمن الاقتصادي والأمن الغذائي وغيرها.

مفهوم الأمن في كتابات المحدثين المعاصرين:

تعريف التركي: والمقصود بالأمن الفكري هو: أن يعيش الناس في بلدانهم وأوطانهم، وبين مجتمعاتهم آمنين مطمئنين على مكونات أصالتهم، وثقافتهم النوعية، ومنظومتهم الفكرية[٢].

تعريف السديس: أنه سلامة فكر الإنسان وعقله وفهمه من الانحراف والخروج عن الوسطية، والاعتدال في فهمه للأمور الدينية وتصوره للكون[٣].

ضرورة الأمن الفكري:

الأمن الفكري: حاجة ضرورية لا تستقيم الحياة بدون توفره، وذلك لعدة أسباب:

---

(١) الجرجاني، التعريفات، ص٣٨.

(٢) عبدالله التركي، الأمن الفكري وعنايته بالمملكة، مطابع رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٣هـ، ص ٦٦.

(٣) عبدالرحمن السديس، الأمن الفكري، مركز الدراسات والبحوث، ص١٦، ط ١٤٢٦هـ.

أولاً: أن الأمن الفكري أحد مكونات الأمن بصفة عامة بل هو أهمها وأساس وجودها واستمرارها، والأمن هو: النعمة التي لا يمكن أن تستقيم الحياة بغيرها، ولذلك امتن الله هذه النعمة عل كفار قريش، قال تعالى:[لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾] سورة قريش، الآيات (١-٤).

وقوله سبحانه: [أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾] سورة العنكبوت، الآية (٦٧).

وجعل النبي ﷺ من تَوَفَّر له الأمن كمن حيزت له الدنيا كلها، عن سلمة بن عبيد الله بن محصن الأنصاري، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»(١).

لذلك لابد أن تعمل على معالجة أسباب اختلال الأمن في المجتمع بشكل متكامل ومترابط من غير أي فصل بين أنواع الأمن، وأن تكون المعالجة الأمنية نابعة من واقع الأمة مستقاة من مصادر فكرها وعقيدتها، وبناء على مقتضيات حاجتها بعيداً عن التقصير والشطط.

ثانيا: أن الأمن يتعلق بالمحافظة على الدين الذي هو إحدى الضرورات الخمس التي جاءت الشريعة الإسلامية بحمايتها والمحافظة عليها، وأن الإسلام هو دين الأمة، يقول تعالى: [إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٣٠٠، باب / من أصبح آمنا في سربه، ج ١ ص ١١٢ ، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت - ط ٣ عام ١٤٠٩ هـ، ت / محمد فؤاد عبد الباقي، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد، رقم ١٢٧، باب / طيب النفس ، ج ١ ص ١٢٧، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، ط ٤ عام ١٤١٨ هـ.

ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾] سورة آل عمران، الآية (١٩).

و قوله تعالى: [وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾] سورة آل عمران، الآية (٨٥).

والإسلام هو: مصدر ثقافة الأمة ومستند علومها ومعارفها، لذلك كان من الأمن الفكري الحماية لهذه الأسس والمرتكزات، والإخلال به إخلال بها.

ثالثاً: أن الأمن الفكري غايته استقامة المعتقد وسلامته من الانحراف الذي يبعده عن المنهج الحق ووسطية الإسلام، وقد ربط الله سبحانه وتعالى، كثيراً بين عبادته وبين تحقيق الأمن بجميع أشكاله، قال تعالى: [لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾] سورة قريش، الآيات (١-٤).

فيبين الله في هذه السورة كيف أنه ﷻ جعل قريشاً تألف رحلة الشتاء والصيف، وانتظام هذه الرحلة، فأمرهم بتوحيده وعبادته الذي هو سر من أسرار بقاء النعمة ودوام الأمن ورغد العيش، فقال تعالى: [وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾] سورة النور، الآية (٥٥).

ففي هذه الآية: يبين الله جل وعلا، وعده للمؤمنين بالنصر، والتمكين في الأرض، ويبدل حالهم من خوف إلى أمن إذا حققوا الشرط، وهو توحيد الله

وعبادته والاستقامة على طاعته، فيُلاحظ أن الله ربط بين الإيمان والعبادة وعدم الشرك، وبين حصول الأمن والبعد عن الخوف.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ سورة القصص، الآية (٥٧).

وفي هذه الآية: رد على كفار مكة الذي زعموا أنهم إذا اتبعوا ما جاء به النبي ﷺ يحصل لهم التخطف من الأرض بالقتل والأسر، ونهب الأموال، وكلامهم فيه سوء الظن بالله سبحانه، فردت عليهم الآية ؛ بأن الله جعلهم متمكنين في بلد آمن ويجبى إليهم من جميع النعم، قد احترمه البعيد والقريب، فلا يُهاجَ أهلُه، ولا ينتقصون بقليل ولا كثير، فَلْيَحْمَدُوا ربهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير، الذي يجبى إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون، فينبغي لهم شكر المتفضل، جل وعلا، وذلك باتِّباعه والانقياد له وعدم الشرك به (١).

وهاهم أصحاب الحِجْرِ، كانوا في نعمة سابغة، وقوة بالغة، وحضارة باسقة، وأمن وارف، فلما كذّبوا الرسل، واستكبروا عن قبول الحق، وعتوا عن أمر ربهم ؛ حلّت عليهم نقمة الله، يقول سبحانه وتعالى: [فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾] سورة الذاريات، الآية (٤٤-٤٥).

فزالت نعمتهم، وانقشع أمنهم، كما قال تعالى: [وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ

---

(١) انظر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج١ ص٦٢٠.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾]

سورة الحجر، الآيات (٨٠ – ٨٤).

وقد أكد ربُنا هذه السُّنة الشرعية، وهي العقوبة فيمَنْ يُكذِّب بآيات الله، ويبتعد عن طاعته في أكثر من آية، فقال تعالى:[وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾]سورة الأعراف، الآية (٩٦).

فالأمن نعمة عظيمة لا تعدلها نعمة، ولا يمكن الحفاظ عليها إلا من خلال الإقبال على الله وطاعته وعدم عصيانه، والتواصي بالحق بين الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحماية الفكر من كل فكر دخيل، والناظر في واقعنا المعاصر يرى كثيراً من الدول سُلِبَتْ منها النعمة، فحصل لهم من الخوف والهلع وعدم الاستقرار ما الله به عليم بل وقتل بعضهم بعضاً، فلنحمد الله سبحانه على نعمة الأمن والاستقرار.

ومن آثار حماية الفكر على الفرد:

الصلاح في الأقوال والأعمال، فسليم الفكر موفق للخير والصلاح في الأقوال والأفعال وهذا من توفيق الله للعبد، وإنَّ المتَتَبِّعَ للمواضع التي ذُكِر فيها الإصلاحُ في القرآن يظهر له بوضوح أنَّ هذه الكلمة وما يتفرَّع منها من ألفاظ واشتقاقات، وما يُستوحى منها من معانٍ ومدلولات، قد تبوّأت مكانًا عليًّا في كتاب الله، وذُكِرت أكثرَ من مئةٍ وسبعين مرَّة بأساليبَ متنوِّعةٍ وسياقاتٍ مختلفةٍ ومدلولات تَخْلُصُ إلى أنَّ كلَّ ما يؤدِّي إلى الكفِّ عن المعاصي ومجانبة الفساد، أو

إلى فعلِ الطَّاعات واتِّباع الرَّشاد -فهو إصلاح .

فالإصلاح ـ ومنه الصَّلاح ـ كما يقولُ أهل اللُّغة والبيانِ: نقيضُ الإفساد، وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقُوبِلَ في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسَّيِّئَةِ .

فمِنَ الأوَّلِ، قولُه تعالى :[وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾] سورة الأعراف، الآية (٥٦).

ومِنَ الثَّاني، قوله تعالى :[وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾] سورة التوبة، الآية (١٠٢).

وممَّا يُشَرِّفُ الإصلاحَ ويجعله آيةَ الصَّلاح ودليلَ الفلاحِ ؛ أنَّ اللهَ تولاَّه بنفسه استحقاقًا وفضلاً، ونسبَه إلى نفسِه الكريمةِ صفةً وفعلاً، وحملَ عليه هذا الإنسانَ حثًّا وترغيبًا ؛ ليكون لرسالته أهلاً، فكان إصلاحُه له تارةً بخَلْقِه إيَّاهُ صالحًا، وتارةً بإزالةِ ما فيهِ منْ فسادٍ بعد وُجودِه، وتارةً بالحكم له بالصَّلاح، كما قال تعالى:[..وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾]سورة محمد، الآية (٢)، وقوله سبحانه: [..وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾]سورة الأحقاف، الآية (١٥)، وقوله سبحانه: [يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾]سورة الأحزاب، الآية (٧١)، وقوله سبحانه: [..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾]سورة يونس، الآية (٨١).

ومن هُنا يتبيَّن مَدَى التَّلاَزُم الموجودِ بين الصَّلاح والإصلاح، وكلاهُما أَشَادَ بهما القرآنُ بحيث لا يَنْفَكُّ أحدُهما عن الآخر؛ لأنَّ الصَّلاح يكون في الفكر أولاً، ثم في النفس وبوجُودهما تكتملُ الفضيلةُ ويؤولُ التَّغيير إلى استقامةِ الحال.

لكن في الإصلاح معنًى زائدًا على الصَّلاح، وهو ما يحصُل فيه منَ النَّفْعِ

المتعدِّي بخلاف الصَّلاح الَّذي قد لا يتعدَّى النَّفع القاصر، وإن كان مِن لازمِه أن يُؤَدِّيَ إلى الإصلاح ؛ لأنَّه ثمرةٌ له؛ ولذا قالوا: «الصَّالحون يبنون أنفسَهم، والمصلِحُون يبنون غيرَهم».

وقد جعل الله من مِنَنِهِ على المصْطَفَيْنَ من عباده إصلاحَ أعمالهم، وتوفيقَهم لعمل الصَّالحات، فقال سبحانه : [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾] سورة الأحزاب، الآيات (٧٠ – ٧١).

وقال سبحانه : [وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾] سورة محمد، الآية (٢).

وفي طليعةِ مَنْ أصلحَهم الله وجعلَهم أئمَّةً في الصَّلاح والإصلاح- الرُّسلُ، عليهم السَّلام، كما قال سبحانه، في حقِّ خليله إبراهيم : [.. وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾] سورة البقرة، الآية (١٣٠).

وقال سبحانه في حقِّ عيسى:[وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾] سورة آل عمران، الآية (٤٦).

وقال سبحانه في غيرهم من الأنبياء والرسل : [وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾] سورة الأنعام، الآية (٨٥)، وقال سبحانه : [وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾]سورة الأنبياء، الآيات (٨٥ – ٨٦).

وإذا كانت مهمّةُ الرُّسلِ والأنبياءِ الإبلاغَ والإنذارَ وإقامةَ الحجَّة على النَّاس، فهي لا تخرج عن كونها مهمَّةَ إصلاحٍ وتغييرِ ما حلَّ بالأَنْفُسِ والهِمم،

والشُّعوب والأُمَم من فسادِ التَّصوُّر والاعتقاد، وانحرافِ العبادة والسُّلوك، وسوءِ التَّعامل والتَّدبير، قال سبحانه تعالى على لسان شعيب في معرض قيامه بواجب النُّصح والتَّذكير لقومه : [..إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾] سورة هود، الآية (٨٨).

ولما اسْتَخْلَفَ نبيُّ الله موسى أخاه هارونَ ـ عليه السلام ـ في قومه أوصاه، بقوله سبحانه: [.. وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾] سورة الأعراف، الآية (١٤٢).

ولهذا رَبط الله في كثيرٍ من الآياتِ بين ذكر التَّوبةِ وذكرِ الإصلاحِ، ففي التَّوبة التَّخلُّص من الذنوبِ والمآثم، وفي الإصلاح السُّمُوُّ بالنَّفس إلى حيث الفضائلُ والمكارمُ، فكلُّ مُصْلِحٍ يبدأ بالتَّوبةِ للتَّطهير ورفعِ الأدناسِ، لينتهيَ إلى إحداث التَّغييرِ وإصلاحِ النَّاس، وفي هذا يقولُ الله : [فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾] سورة المائدة، الآية (٣٩)، ويقول سبحانه : [إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾] سورة النساء، الآية (١٤٦).

ويقول سبحانه : [ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾]سورة النحل، الآية (١١٩).

وأمَّا في نطاق جماعةِ المؤمنين وطوائفِ المسلمين، فَلَهُ سُلْطَانُ الحُكْمِ عليهم وإلزامُهم بما يحفَظ عليهم وِئَامَهُمْ، ويقوِّي أَوَاصِرَهُم، ويدفعُهم إلى تقوى الله وطاعته، كما في قوله سبحانه : [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١﴾]سورة الأنفال، الآية (١).

وحتّى في الحالات الشَّاذَّة التي قد يصل فيها الأمر إلى التَّقاطع والتَّدابر؛ بل إلى التَّقاتل والتَّناحُرِ، فإنَّ الله نَدَب إلى الإصلاح لما فيه من قطع السَّبيل على الأعداء، وحفظِ الأموال وحَقنِ الدِّماء، فقال جلَّ ذِكرُه: [وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴿٥﴾. ﴿٩﴾] سورة الحجرات، الآية (٩).

وإذا كان إفسادُ ذاتِ البَيْنِ يَحْلِقُ الدِّينَ، ويُذْكِي العَدَوات، ويفرِّق بين الأحبة، ويزيل ودَّ الصحبة ؛ فإنَّ إصلاحَ ذاتِ البَيْنِ يُذهب وَغَرَ الصَّدْرِ، ويَلُمُّ الشَّمْلَ، ويُعيدُ الوفاق، ويُصلِح ما فَسَد على مَرِّ الزمان، فهو لهذا مَبْعَثُ الأمنِ والاستقرار، ومَنْبَعُ الأُلْفَةِ والمحبَّة، ومصدرُ الهدوء والراحة، وآيةُ الاتِّحاد والتّكاتف، ودليلُ الأخوَّة وبرهانُ الإيمان الصادق، قال تعالى : [إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾] سورة الحجرات، الآية (١٠).

لقد كان رسول الله يدعو، فيقول: « اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ »[1]. وهذا الدعاء من المعصوم ﷺ يدل على أن الإنسان دائماً مفتقر إلى عناية الله تعالى له في دينه أولاً ؛ لأنه سبحانه العاصم من الضلال والانحراف.

لذا فكل إنسان منا يحتاج إلى وسائل صلاح وإصلاح.

---

(١) صحيح مسلم، برقم ٢٧٢٠، باب من دعاء النبي ﷺ ج٨ ص ٨١، ط دار الجيل بيروت مصور من الطبعة التركية ١٣٤٣ هـ.

وسائل صلاح ما يستقبل من حياته، وإصلاح ما فسد في سالف أوقاته .

وسائل لإصلاح الدين والدنيا والآخرة، وخاصة فى هذا الزمان الذى قال الله تعالى عنه: [ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾]سورة الروم، الآية (٤١)، وأول ما يقوم به من الإصلاح هو صلاح الفكر، ولا صلاح ولا إصلاح إلا بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ حيث قال الله تعالى: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾] سورة النساء، الآية (٥٩).

والله سبحانه فى غير موضع يبين أن تحقيق الإيمان وتصديقه مرهون بفعل الأعمال الظاهرة والباطنة، كقوله سبحانه: [إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾] سورة الأنفال، الآيات (٢-٤)، وقال سبحانه: [إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾] سورة الحجرات، الآية (١٥)، وقال تعالى: [إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾] سورة النور، الآية (٦٢)، وقال تعالى :[فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾] سورة النساء، الآية (٦٥).

وسليم الفكر حريص أشد الحرص على صلاح الظاهر والباطن. ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة، ومنه قول الشاعر محمود الوراق:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع (١)

ومن الأدلة الصريحة في إثبات التلازم والترابط بين الظاهر والباطن: ما رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ الناس، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ**» (٢).

فمن صلح قلبه صلح جسده قطعا بخلاف العكس.

فالظاهر والباطن متلازمان، لا يكون الظاهر مستقيما إلا مع استقامة الباطن، وإذا استقام الباطن فلا بد أن يستقيم الظاهر.

وفى الحديث : « لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ لِسَانُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ » (٣).

---

(١) لمحمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج٢ ص٤، دار الفكر العربي القاهرة، ط الثالثة ١٤١٧هـ.

(٢) رواه البخاري، برقم ٥٢، باب فضل مَنْ استبرأ لدينه، ج١ ص ٢٠، ورواه مسلم، برقم ٤١٠١، باب الحلال بين والحرام بين، ج٥ ص ٥٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، برقم ١٣٠٤٨، مسند أنس بن مالك -رضي الله عنه- ج ٢٠ ص٣٤٣، ط دار الرسالة، وحسَّنه الألباني في السلسة الصحيحة، برقم ٢٨٤١، ج٦ ص٨٢٢.

فالقلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، فلا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق(١).

ثمرات الصلاح والإصلاح:

ذكر القرآن الكريم للإصلاح والصلاح ثمراتٍ كثيرةً وفوائدَ غزيرةً، ورفع من درجات أصحابها، وأنزلهم أعلى المنازل، ووصفهم بجميل الصفات، ومن ذلك:

• الصالحون مع أهل الدرجات العُلا في الجنة، قال تعالى: [وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾] سورة النساء، الآية (٦٩).

• إصلاح العمل أمان من المخاوف والأحزان، قال سبحانه: [.. فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾] سورة الأنعام، الآية (٤٨).

• الإصلاح سبب من أسباب رحمة الله ومغفرته، قال سبحانه:[.. وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾] سورة النساء، الآية (١٢٩)، وقال جل وعلا: [.. إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾] سورة الإسراء، الآية (٢٥).

• لا يضيع الله أجر المصلحين، فأجرهم عند الله محفوظ، قال تعالى: [.. إِنَّا

(١) انظر: مجموع الفتاوى، شيخ الاسلام ابن تيمية، ج ١٨ ص ٢٧٢.

لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾] سورة الأعراف، الآية (١٧٠).

• الصالحون يستحقون ولاية الله، قال جل وعلا:[إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾] سورة الأعراف، الآية (١٩٦).

• الله ينجي أهل البلاد إن كان غالب حال أهلها الصلاح، والعكس بالعكس، قال جل وعلا: [وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾]سورة هود، الآية (١١٧).

و عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعاً يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا**»، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ:« **نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»(١).

• الصلاح يوجب وراثة الأرض والاستخلاف فيها، قال سبحانه: [.. أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾] سورة الأنبياء، الآية (١٠٥).

وليعلم أنه لا صَلاح ولا إصلاح يُعيد للأمَّة الإسلاميَّة اليومَ ما فَقَدَتْهُ من عزِّ الأخلاقِ وسُمُوِّ المنزلةِ وشَرَفِ السُّؤْدَدِ ؛ إلاَّ بما صَلَحَ عليه الأوَّلون من رجالها وأبنائها، ونسائها وبناتها.

فاللَّهم أصلحْ للمسلمين أحوالَهُم وخُذْ بأيديهم إلى مَرَاتِعِ الصَّلاح، ووفِّقهم لسلوك سبيل الإصلاح في كلّ ما يأتون ويَذَرون ويقولون ويفعلون إنَّك وليُّ ذلك والقادر عليه.

---

(١) رواه مسلم، برقم ٧٣٣٧، باب اقتراب الفتن وفتح يأجوج ومأجوج، ج٨ ص١٦٥.

ومن آثار حماية الفكر للفرد: الطمأنينة والسعادة القلبية لصاحب الفكر السليم:

فإن الأمر الذي اجتمع عليه الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، غنيهم وفقيرهم، شريفهم وضيعهم، هو: **طلب الطمأنينة وتمني نزول السكينة في القلوب.**

ربما أَلَمَّ بأحدهم مرضٌ، فلا يسعى بإزالته وتَحَمَّلَ وصبر، وفي أحيانا كثيرة كتمه في نفسه، أما إذا حل بساحته ضيق واجتمع على قلبه غمٌّ، فلا تسأل عن حاله وحال من يعيش معه من أسرته والقريبين منه، ولقد جاء الدين الإسلامي العظيم لنفع الناس ومتى ما أخذوا بتعاليمه عاشوا حياة السعداء، وكانوا من أبعد الناس عن الهموم والغموم.

والسعادة غاية كل إنسان في هذه الحياة، والطمأنينة هي العامل الأهم في تحصيل تلك السعادة، والركن الأبرز من أركان الحياة الهانئة الرغيدة، وبينما تفضل الله تعالى على عباده المؤمنين بإخبارهم بمصدر تلك الطمأنينة ومعينها الأوحد، وما زال الإنسان غير المؤمن – منذ فجر التاريخ وحتى الآن – يبحث عن تلك الطمأنينة التي تنقذه من آفات وويلات القلق الذي يفتك به، ويحاول أن يتلمس أسبابها ويعرف مصدرها ومنبعها، بعيدا عن الوحي الإلهي والهدي النبوي، دون أن يصل إلى نتيجة تشفي غليله، أو يتحصل على دواء يعالج به أمراضه النفسية.

لقد أخبر الله تعالى المؤمنين عن مصدر الطمأنينة الذي لا يمكن لشيء في هذه الدنيا أن يسد مسده مهما علت في نظر الناس قيمته ومكانته، فقال سبحانه

تعالى:[ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾] سورة الرعد، الآية (٢٨).

أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن قلوبهم عند ذكره وتستأنس بتوحيد الله، فتطمئن بالقرآن الكريم و بأمره سبحانه ووعده(١).

وقد ينخدع المسلم أحيانا بزخرف الحياة المادية التي يحياها الناس في الدول الغربية، فيظن أن الطمأنينة تكمن في المال الوفير الذي يُؤَمِّن له متطلبات الحياة ومستلزماتها، ولكنه حين يغوص في أعماق حقيقة قلوب ونفوس هذه المجتمعات غير المؤمنة بالله تعالى، يدرك حجم الشقاء النفسي الذي يحيونه، ومقدار القلق الذي ينتاب قلوبهم ويجتاح نفوسهم.

إنَّ نظرة سريعة لآفات القلق التي تفتك بالمجتمعات غير المؤمنة ؛ كفيلة بالدلالة على عظمة هذا الدِّين، وبالإشارة إلى النعمة الكبرى والجائزة العظمى التي امتنَّ الله تعالى، بها على المسلمين، حيث أذن لهم بذكره، ودلهَّم على مصدر الطمأنينة والراحة والسعادة في الدنيا والفوز والنعيم في الآخرة.

فالانتحار هو السبب الرئيس للموت في أوساط المراهقين والبالغين دون سن الثلاثين. وبعيدا عن الأسباب التي يذكرها علماء الشرق والغرب لظاهرة الانتحار الناجمة عن القلق وغيره من الاضطرابات النفسية، من فقر وإدمان للمخدرات، ومشكلات العمل وغير ذلك، فإن السبب الرئيس يتمثل في الفراغ الروحي والإيماني، والبعد عن مصدر الطمأنينة الحقيقي المتمثل بذكر الله تعالى، ومفتاح السعادة الأبدي المرتبط بالعقيدة والإيمان به سبحانه.

---

(١) انظر: تفسير الطبري، ج١٦ ص٤٣٢، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٩ ص ٣١٥.

ومن أسباب السكنية والطمأنينة التي تحصل للقلب:

- تفويض الأمر لله، ويقين العبد أن اختيار الله له أحسن من اختياره لنفسه:

من فرط جهلنا أننا لا ننظر إلا في الحاضر من الأقضية التي يقضيها الله تبارك وتعالى، حتى إذا توالت الأيام، وانكشف لنا بعض المكنون في مستقبلها قلنا الحمد لله على ذلك القضاء الذي قضاه الله وكنا له كارهين.

كم من شاب تمنى أن يذهب للجهاد، ويستشهد وينال الشهادة في سبيل الله، لكن عندما عرف وشاهد ما يحصل من استغلال لشبابنا وكيف أنهم يجاهدون من غير راية وبدون الإذن من ولي الأمر ندم ورجع، بل البعض عندما ذهب وتفاجأ بما رأى رجع إلى بلده متحسراً، والبعض من الشباب لا يُعرف عنهم هل هم أموات أو أحياء عندئذٍ يجب أن يكون العبد منشرحا صدره عند كل قضاء يقضيه الله عليه مما يكره، ويبتعد عن مواطن الفتن والصراعات، ويكون جهاده في طلب العلم والجلوس مع العلماء فهم أعظم من يثبتون على الطاعة.

ومن أسباب الطمأنينة ونزول السكينة:

استشعار قرب الفرج عند حلول المحن ونزول البلايا:

فالعاقل يعلم أن دوام الحال من المحال، وأن المرء متقلب بين الضراء والسراء، والواقع يشهد أنه ما من نازلة إلا ارتفعت عن أصحابها، فلِمَ هذا اليأس؟ وكيف يسيطر القنوط على القلوب؟! فأبشر بزوال كل هم، وأيقن بتحول كل مكروه.

دع الأيـــام تفعـــل مـــا تشـــاء وطـــب نفســـاً إذا حكـــم القضـــاء

ولا تجـــزع لحادثـــة الليـــالي فمـــا لحـــوادث الـــدنيا بقـــاء(١)

وفي قول الله تعالى: [فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦] سورة الشرح، الآيات (٥-٦). بشارة عظيمة للمكروبين والمهمومين، أنه كلّما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر، فأخرجه، كما قال تعالى: [..سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧] سورة الطلاق، الآية (٧).

وكما قال النبي ﷺ: «.. **وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»(٢).

وتعريف «العسر» في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير «اليسر»" يدل على تكراره، فلن يغلب عُسرٌ يسرين، وفي تعريفه بالألف واللام الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له(٣).

لذا لا تجزع أخي الشاب بما يحصل للمسلمين من قتل وتشريد وتهجير، إنما واجبك هو الدعاء لهم في ظهر الغيب وإصلاح نفسك، والإكثار من العمل الصالح، وأعظم العبادة كما صح عنه ﷺ «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»(٤).

والهرج هو: القتل ووقت الفتن، لذا كن قريبا من الله بالإكثار من الطاعات والبعد عن المعاصي، وتجنب الفضول، واحرص على الرقى بفكرك فتزداد علما وتقى.

---

(١) قال الأبيات الإمام الشافعي، رحمه الله، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ج٢ ص٤٢٦، الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، برقم ٢٨٠٣، ج٨ ص١٨، باب مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، مؤسسة الرسالة، ط ١ عام ١٤٢١ ه، ت/ شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون.

(٣) انظر: تفسير السعدي، ج١ ص٩٢٩، مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٤٢٠ه.

(٤) رواه مسلم، برقم ٢٩٤٨، باب: فضل العبادة في الهرج، ج ٤ ص٢٢٦٨.

دعوة للتأمل حري بنا أن نطبقها، الخلوة مع الله سبحانه والإيناس بذكره، يقول سبحانه وتعالى: [ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾] سورة الرعد، الآية (٢٨).

هكذا تفصح هذه الآية بهذه الحقيقة العظيمة، وتوضح هذا الأمر بجلاء، لقد بحث الناس عن الطمأنينة في المال والشهرة، ولكنهم وجدوا سرابا خادعا، وبريقا كاذبا، وأما أصحاب الذكر المستديم، أولو الألباب، أهل الفكر فهم في راحة وطمأنينة لا يشعر بها إلا مَنْ ذاقها. قال عبد الله بن المبارك: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل: وما أطيب ما فيها ؟ قال: محبة الله عز وجل ومعرفته وذكره»(١).

قال أحد السلف في ذلك: «إنه لتَمُرّ بي أوقاتٌ أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش رغيد»(٢).

هل جربت أيها المؤمن أن تجلس منعزلا تذكر ربك وتناجيه ؟ تتلو كتابه وتتأمل في معاني هذا الكتاب العظيم.

يقول ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «إن في الدنيا جنة مَنْ لمّ يدخلها لن يدخل جنة الآخرة، قيل وما هى ؟ قال: معرفته والأنس به جل وعلا»(٣).

إنه نموذج للحياة الطيبة التي كان يعيشها العلماء، والأنس والسرور الذي

---

(١) جمال الدين ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢ ص٣٢٣، ط دار الحديث - القاهرة ١٤٢١ هـ.

(٢) ابن رجب الحنبلي، لطائف المعارف، ج١ ص٣٢٤، ط دار ابن حزم، عام ١٤٢٤هـ.

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، ج١ ص٤٥٢.

كانوا عليه في حياتهم الدنيا، ولما كثر انشغالنا بالتوافه من الأمور والأخبار، ووسائل التواصل الاجتماعى، والأمور السياسية التى يقوم، وللأسف، بعض الشباب بتحليلها وكأنه محلل، صرف وقته في متابعة تغريدات لاتُسمن ولا تغنى من جوع، كل ذلك، وللأسف، صار نتاجه حياة ضنك وَهَمّ.

فدعوة إلى العلم وطلبه، وإن لم تستطع، فلا أقلَّ من تغذية الروح بالمطالعة في كتب أهل العلم، انظر في تفسير آية، أو شرح حديث، أو سيرة عطرة، أو أبيات شعر مهذبة، وهكذا تتنقل بين هذه الأفياء وستجد سرورا بإذن الله تعالى. ما دامت الطمأنينة هى هدف يسعى كل إنسان في هذه الحياة للوصول إليه، وما دام الله تعالى قد أرشدنا – كمسلمين – إلى مصدر هذه الطمأنينة ومنبعها الذي لا ينضب، فهل يعقل بعد كل ذلك أن يتغافل المسلم عن ذلك المصدر ويحيا حياة مليئة بالقلق وبعيدة عن الطمأنينة ؟!!

ومن الآثار الناتجة لحماية الفكر على الفرد:

حب العمل والإنتاج وترك الأثر الجميل له:

بين الله تعالى في كتابه الكريم أن العمل لكسب العيش، وتحصيل ما لا بد منه كان دأب أنبياء الله – عليهم الصلاة والسلام – قال تعالى: [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠] سورة الفرقان، الآية (٢٠).

هذه الآية أصل في تناول الأسباب، وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك، ويخبر سبحانه عن جميع مَنْ بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا

يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمُنَافٍ لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة ما يستدل به كل ذي لُبٍّ سليم وبصيرةٍ مستقيمة على صدقِ ما جاؤوا به من الله (١).

وأخبر جل وعلا عن داود، عليه السلام، بقوله، جل شأنه: [وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾] سورة الأنبياء، الآية (٨٠)، والمراد باللبوس هنا الدروع.

وعن المقدام بن معدي كرب – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلاَمُ – كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»(٢).

والحكمة في تخصيص داود بالذكر – كما يقول الحافظ ابن حجر – أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة ؛ لأنه كان خليفة الله في الأرض، وإنما ابتغى الأكل من طريق أفضل(٣).

يتضح من كل ما تقدم تأكيد الشريعة الإسلامية على أهمية العمل والاكتساب، وأن على كل فرد قادر أن يسعى بنفسه لتحصيل ما يحتاجه من مقومات الحياة، والله تعالى قد قدر الأرزاق وكتبها، وعلى المرء أن يأخذ بجميع

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج١٣ ص١٤، وابن كثير ج١ ص١٠٠.

(٢) رواه البخاري برقم ٢٠٧٢، باب بدء الوحي، ج٣ ص٧٤.

(٣) فتح الباري، ج٤ ص٣٠٦.

الأسبابِ الممكنة لتحصيل الرزق وجمعه، وألّا يبقى خاملاً ينتظر رزقه، فإن الله تعالى أمر بالسعي في الأرض والتنقل بين أرجائها طلبًا للعمل والكسب، قال تعالى: [هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾] سورة الملك، الآية (١٥).

والإنسان - أي إنسان، ومن أي جنس كان- هو مذكور بأعماله ومنجزاته في حياته، حتى لو قيل: الإنسان إنجاز، لكان صحيحا ؛ لكونه لا يعرف إلا بما أنجز، ولا يذكر إلا بما عمل .

والإنسان بلا عمل ولا إنجاز ليس إلا رقما بشريا، مثله مثل أي جماد، وفي البشر أناس عمروا حتى جاوزوا المئة، وحصدوا أرقاما قياسية في كونهم أطول الناس عمرا في وقتهم أو بلدهم، لكن ليس لهم من إنجاز يذكر، ولا يعرف الواحد منهم إلا أنه عمر طويلا، وعمره ليس بيده ولا من سعيه وكده.

ومن الناس من يعيش سنوات قلائل فيموت في الثلاثين أو الأربعين ولكنه حفر اسمه في ذاكرة التاريخ، وأثبت سيرته في سجل التراجم البشرية، وما كان ذلك إلا بعمل عمله خَلَّدَ ذكره، وأثبت في التاريخ الإنسانيِّ وجوده.

كم يعيش في كل جيل من بشر؟! وكم هم الذين تُدَوَّنُ تراجمهم، وتحفظ سيرتهم من هؤلاء البشر؟! سواء من القادة أو العلماء أو التجار أو الشعراء أو مَنْ برزوا في أي مجال من المجالات... إنهم قليل جدا من كَمٍّ كثير جدا من البشر.

وإذا كان كل إنسان يسعى لتخليد ذكره، ويحب أن يدوم أثره ؛ فإن ذلك لا يتأتى له إلا بقيادة تنطلق من فكر سليم وسعي وكد وجهد وتعب وعمل.

إن من الناس من ليس له هدف في الحياة إلا أن يأكل ويشرب ويتمتع

بالملذات إلى أن يموت، وليس له إنجاز، ولا يطمح إلى أن ينجز شيئا ينفع نفسه وينفع الناس.

وبما أن الزمن هو وعاء العمل، وهو إناء المنجزات ؛ كان لا بد من استثماره في ذلك. وللإنجاز لذة يجدها أهل العمل، وللقعود والكسل حسرة تحيط بأهل الراحة والبطالة.

وأسعد يوم في حياة البارز من الناس هو يومٌ ازدحمت عليه فيه الأعمال والأعباء، فضاعف جهده حتى أنجزها كلها، فلا يخلد إلى فراشه في الليل إلا وهو فرح مغتبط بما أنجز، قد أنسته حلاوة الثمرة مرارة التعب.

وأتعس يوم يمر على الإنسان هو اليوم الذي تغرب شمسه ولم ينجز فيه شيئا لا من عمل الدنيا ولا من عمل الآخرة، وإذا تتابع ذلك في حياته أحاطت به التعاسة من كل جوانبها، وأصيب بأمراض الاكتئاب والملل والسأم والهم والغم وفقدان الذات، والإحساس بأنه هامش في الحياة، وأن حياته لا تُعني له ولا للآخرين شيئا، وهو ما يحسُّه أكثر شباب اليوم وفتياته، فرغم ما يرفلون فيه من النعم والخير؛ فهم كثيرو التضجر والتأفف والملل والشكاية، لا يدرون ماذا يريدون ولا ماذا يفعلون، ولا لماذا يعيشون ؟ إن هذا الشعور فتاك بقلوبهم، قتال لآدميتهم.

إن الإسلام علمنا أن تكون حياتنا جملة من الأعمال، المنجزات فيها أكثر من الأعمار، وتأملوا هذا الحديث العظيم في الحث على الإنجاز إلى آخر لحظة، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ قَامَت السَّاعةُ وَفِي يَد أَحَدِكُم فَسِيلةٌ فَإِنْ استَطاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتى يَغرِسَهَا فَليَغرِسْهَا**»(١).

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٤٧٩، باب / اصطناع المال، ج ١ ص ١٦٨، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت، ط ٣ عام ١٤٠٩ هـ، ت / محمد فؤاد عبد الباقي.

ما المفيد في غرس نخلة والساعة تقوم إلا التعود على العمل والإنجاز إلى آخر لحظة، واحتساب الأجر في ذلك، وعلى هذا سار نبي الأمة ﷺ فلما حضره الموت جعل يوصي بوصايا لم يلهه الموت عنها، فكانت الصلاة آخر وصاياه، وعمر -رضي الله عنه - مطعون، وجراحه تنزف بغزارة وينتظر الموت، فيُعْلِمُ غلاما أن يرفع ثوبه ولا يسبله.

لابد أن يعلم الشباب أن الحياة بلا إنجاز لا تُعدُّ شيئاً، وأن كل يوم يمضي من العمر لا ينجزون فيه شيئا فهو خسارة عليهم، وأن الرفعة التي ينشدونها، والمنزلة التي يتمنونها، والاحترام والتوقير الذي يحلمون به ؛ لن يكون إلا بإثبات وجودهم في أسرهم وبلدانهم، ولن يكون ذلك إلا بإنجازات ترفعهم، وهنا وقفة مهمة، هل يكون الانجاز أخي الشاب بالتفجير وقتل الأبرياء وسفك الدماء المعصومة؟! هل الانجاز وتخليد الاسم في ذاكرة التاريخ بتفجير المساجد والاعتداء على الحرمات ؟! هل الإنجاز بقتل رجال أمن يقومون بالحراسة والحفاظ على أمننا؟! أيها الشباب، أين يُذهَبُ بعقولكم؟؟ والله لتحزن أشد الحزن عندما ترى شابا تخبطت يده في الحرام وقتل الأبرياء ما موقفه عندما يقف أمام الله سبحانه ؟ وعلى الآباء والأمهات، والمربين والمربيات أن يغرسوا أهمية الإنجاز في الشباب والفتيات، وأن يخبروهم أن مرحلة الشباب مرحلة ذهبية للإنجاز، الانجاز القائم على ما فيه نفع للأمة ولمجتمعهم ووطنهم، حيث اجتماع القلب، وتوقد الذهن، ونشاط الجسد، وفراغ النفس، وأن المنجزين من البشر من شتى الاتجاهات والملل استثمروا شبابهم وفراغهم فيما ينفعهم، وجانبوا أقرانهم في لهوهم، ففرحوا بمنجزاتهم، وحُفِظَتْ سيرهم، وتُلِيَتْ أخبارهم، وبقي في

الناس ذكرهم، بينما نُسِي إخوانهم وأقرانهم وزملاؤهم ممَّن لم يحذ حذوهم، أو، وللأسف، مَنْ إلى الآن يُدْعَى عليهم، وهم من يتَّموا الأطفال، وقتلوا الشيوخ، وأحرقوا أفئدة الأمهات خلدوا ذكرهم، والعياذ بالله، في أسفل السافلين، يقول سبحانه وتعالى: [قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾] سورة الإسراء، الآية (٨٤).

اللهم أصلح شبابنا وحبب إليهم الإيمان وزَيِّنْهُ في قلوبهم وكَرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، واجعلهم من الراشدين، اللهم أمين.

ومن الآثار الناتجة لحماية الفكر على الفرد:

عبادة الله سبحانه على بصيرة:

الإنسانَ يميل بطبعه إلى المُتَع، وتهفو نفسه إلى الدعة والراحة، ويشتاق بتكوينه إلى ما يرضي دنياه.. هكذا خُلق الإنسان عجولاً، تغره الثمار القريبة الفانية، حتى تُشغله عن الباقية لأنها بعيدة، والحكمة التي من أجلها خُلقنا، والغاية التي لسببها وجدنا، وبَيَّنَا بالدليل العقلي والنقلي أن الحكمة من ذلك هو تحقيق العبودية لرب البريّة على بصيرة وعلم، ولابد لكل إنسان حتى يستقيم وجوده في هذه الدنيا، ويكون عنصراً صالحاً مثمراً فعالاً ؛ من تحقيق مراد الله عز وجل لأنه الخالق الرازق المبدئ المعيد ذو الجلال والإكرام.

ولكي نعبد الله – سبحانه وتعالى – على بصيرة ودراية وعلم ؛ لابد أن نعرف حقيقة العبادة، وقد عَرَّفَ شيخ الإسلام، ابن تيمية – رحمه الله – العبادة تعريفا يَنُمُّ عن استقراء لكافة النصوص في ذلك حيث قال: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة: فالصلاة والزكاة

والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإحسان إلى الجار ومحبة الناس واليتيم والمسكين، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدِّين له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه، والرضاء بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادات لله [١].

ولا يتحقق معنى العبودية التي خلقنا الله لأجلها إلا بركنين عظيمين وركيزتين أساسيتين هما: غاية المحبة مع غاية الذل والخضوع لله عز وجل. قال ابن القيم في نونيته:

وهو الإله الحق لا معبود إلا ... وجهه الأعلى العظيم الشان
بل كل معبود سواه فباطل ... من عرشه حتى الحضيض الدانِ
وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان
فقيام دين الله بالإخلاص وإلا ... حسان إنهما له أصلان [٢]

وكانت العبادة راحةً للنبي ﷺ، فكان إذا تعِب ونَصَب قال: «**يَا بِلَالُ، أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**» [٣].

وكان ﷺ يلجأ إلى الصلاة حينما تشتد عليه الكروب، وتزيد عليه الهموم،

(١) ابن تيمية، العبودية، ج١ ص٤٤، المكتب الإسلامي - بيروت، ط السادسة ١٤٢٦هـ.

(٢) ابن القيم، القصيدة النونية، ج١ ص٣٥، مكتبة ابن تمية القاهرة، ط الثانية ١٤١٧ هـ.

(٣) رواه أحمد في مسنده برقم ٢٣٠٨٨، ج٨ ص١٧٨، وصححه الأرنؤوط محقق الكتاب.

فعن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ:« كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى »(١).

وإذا تأملت في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وجدت أن من بينهم «شابٌ نشأ في عبادة ربه»(٢).

فاستحق يوم تنكبُّ الشمسُ على الخلائق فتلجمُهم في عرقهم، أن يحظى بظلٍ مميز، إنه ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

يا لله العجب، كم للعبادة من حلاوةٍ في قلب المؤمن، يجد فيها راحتَه وسلوتَه، و يا لله العجب، كم لها من طمأنينةٍ يجد فيها المهموم أنسَه وبردَ فؤاده، يقول الله تعالى: [ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾] سورة الرعد، الآية (٢٨).

ولنحرص على التوسط في العبادة، دون إفراطٍ ولا تفريط، كما هي سنته ﷺ عن عائشة، أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «مَنْ هَذِهِ؟ » قَالَتْ: فُلاَنَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلاَتِهَا، قَالَ: «**مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لاَ يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا**» وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ (٣).

ولنتذكر – أخيرًا – أنّ علينا أن نعرف أننا ما خُلقنا إلا لعبادة ربنا فى كل أحوالنا، فلنعبده ولنصطبر على عبادته، يقول سبحانه وتعالى: [قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾] سورة الأنعام، الآيات (١٦٢-١٦٣).

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ج ٣٨ ص٣٣٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٤٧٠٣ ج٢ ص٨٥٨.

(٢) رواه البخاري برقم ١٤٣ باب الصدقة باليمين ج٢ ص١١١.

(٣) رواه البخاري، رقم ٤٣، باب أحب العمل إلى الله أدومه، ج١ ص١٧.

والعبادة باعتبار نفعها قسمان:

الأول: أن يكون نفعها ذاتيا، كالصلاة وقراءة القرآن والأذكار وغيرها.

الثاني: أن يكون نفعها متعديا، كالزكاة ؛ لأن الغني يخرج جزء من ماله ويعطيه للفقير.

والعبادة المتعدية باعتبار نفعها وأثرها تكون أفضل وأكثر أجرا من الذاتية، وكلنا نعلم فضائل الصيام وقيام الليل وفضل قراءة القرآن، لكن اسمعوا الفضل لكافل الأرملة والمسكين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ - وَأَحْسِبُهُ قَالَ - وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ**»(١).

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ**»، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ يَعْنِي: السَّبَّابَةَ وَالوُسْطَى(٢).

ولما طغت الماديات في زماننا انقلبت الموازين واختلفت المفاهيم، حتى ساد بين كثير من المسلمين أن العبادة هي الشعائر الدينية والفرائض الوقتية، حتى غرقت الأمة بالذل والهوان والضعف والتقهقر، ولا يمكن أن تعود لمجدها وعزتها وقوتها حتى يستقر المفهوم الصحيح للعبادة ويطبق بشكل دقيق، لأن العمل والتطبيق بعد العلم والفهم.

---

(١) رواه مسلم، برقم ٢٩٨٢، باب / الإحسان إلى الأرملة والمسكين، ج ٤ ص ٢٢٨٦.

(٢) رواه الترمذي، سنن الترمذي، رقم ١٩١٨، باب / ما جاء في رحمة اليتيم وكفالته، ج ٤ ص ٣٢١، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ ه، ت/ محمد أحمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، وحكم عليه الألباني بأنه صحيح في صحيح الأدب المفرد، ج ١ ص ٧٥.

وعليه يجب أن يكون مفهوم العبادة شاملاً ومعناها واسعاً، ولا يقتصر على بعض الطاعات والأفعال والفرائض، فكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة إذا صحت النية وأحبها الله وارتضاها فهي عبادة، فحركاتك وسكناتك وتعاملاتك إذا أحسنت النية فيها فهي عبادة، وكذلك أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر، بل تبسمك في وجه أخيك، وإماطة الأذى عن الطريق، والحياء عبادة، وصلة الأرحام وبر الوالدين، وحسن العشرة والأخوة في الله، والصدق في الحديث والتسامح مع الآخرين والصفح عنهم، وحسن الخلق وتجنب مواطن الشبهة والريبة عبادة، إلى غير ذلك من التعاملات والسلوكيات والعلاقات الاجتماعية .

فلو عاش الإنسان ومات لله ومع الله وفي سبيل الله بكل أحواله ومراحله وجوانبه، فإنه سيحقق معنى العبودية لله وحده لا شريك له، وتنقص تلك المرتبة بقدر تعلُّق قلب الإنسان بغير الله، عز وجل، حتى ينعكس على مجريات حياته. لذلك يقول عليه الصلاة والسلام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ ﷺ قَالَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**»(١).

وبالمقابل قال عليه الصلاة والسلام، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ**

(١) رواه البخاري برقم ٢٨٨٦، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، ج٤ ص ٣٤.

صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»(١).

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنساني، فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذي يرد إلى الذهن، والذي يضيق نطاقها، حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة التي يؤديها المؤمن، إن حقيقة العبادة تبدو في معنيين: أولهما: عام، والآخر: خاص.

أما العبادة بالمعنى العام: فإنها تعني السير في الحياة ابتغاء رضوان الله، وفق شريعة الله. فكل عمل يقصد به وجه الله تعالى، والقيام بأداء حق الناس استجابة لطلب الله تعالى بإصلاح الأرض ومنع الفساد فيها ؛يعد عبادة، وهكذا تتحول أعمال الإنسان مهما حققت له من نفع دنيوي إلى عبادة إذا قصد بها رضاء الله.

وحقيقة العبادة تتمثل في أمرين رئيسيين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي: استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً.. عبداً يَعبد.. ورباً يُعبد.. وأن ليس وراء ذلك شيء، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع، وهذا الاعتبار، ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود.

الثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة.. التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم ١٩٥٦، باب / ماجاء في صنائع المعروف، ج٤ ص ٣٣٩، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج١ ص٨١٦.

بهذا المفهوم الشامل المتكامل ينبغي أن نفهم حقيقة العبادة، وأن كل شيء في الحياة مع إخلاص النية وابتغاء مرضاة الله يكون عبادة، فكل مسلم في اختصاصه يستطيع تحقيق ذلك، فالاقتصادي عندما يتحرى الحلال ويتقي الحرام، ويؤصل لذلك ويربط هذا الجانب بالشريعة يكون ذلك له عبادة، وهكذا التاجر الذي يتحرى مصارف الزكاة ومستحقيها بشكل دقيق، ويتعامل مع الناس بصدق وبر، والإعلامي المنافح الذي ينصر قضايا المسلمين فله دور كبير في ذلك، والطبيب والمهندس والأستاذ والداعية والكاتب والأديب والشاعر.. إلخ.

وكم نحن بحاجة لترسيخ هذه المفاهيم، وتحقيق العبادة على الوجه الصحيح؛ في زمن اضطرب فيه العلم، واختلفت المفاهيم وطغت الماديات، وكثر الهرج وساد الجهل، وضعفت الهمم وقلت الإرادة، وظهر الفساد في البر والبحر، وعَمَّ الظلم والفجور، وكثر القتل بغير حق، وزلت أقدام وضلت أفهام، وكثر الاختلاف والتناحر، وعمت البلوى والتلون والتفاخر، إذ يقول حبيبنا -عليه الصلاة والسلام- «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»(١).

❊❊❊

(١) رواه مسلم، برقم ٢٩٤٨، باب / فضل العبادة في الهرج، ج ٤ ص ٢٢٦٨.

المبحث الثاني:
آثار حماية الفكر على المجتمع

إن الأمن في الأوطان والسلامة في الأبدان أكبر نعمة، وأعظم مطلب تسعى إلى تحقيقه الأمم والشعوب، ويطمح إليه الأفراد والجماعات على مر العصور، فهو سبيل الدعة والطمأنينة، وطريق الرخاء والاستقرار ورغد العيش، فبه تعم البركات وتصلح الأحوال، وتهنأ الحياة، ويعيش الناس في أمن وطمأنينة وراحة بال، وهذه النعمة العظيمة تقوم على دِعامتين أساسيتين هما: الإيمان بالله تعالى، والاستقامة على العمل الصالح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليقترن الأمن بالإيمان، فتتم النعمة وتتجلى الكرامة، وتتحقق الحياة الهادئة، يقول جل وعلا: [ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾] سورة الأنعام، الآية (٨٢).

إن الإيمان بالله وَحْدَه يَحْمِل كلَّ فرد في المجتمع على أن يكون عَيْنًا ساهرةً، ويدًا حافظةً أمينةً، ونفسًا رحيمةً مُشْفِقةً ساعيةً في اجتناب كل ما من شأنه أن يُؤذِيَ المسلمين، أو يُسبِّبَ لهم الخوف في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، فضلاً عن الاعتداء عليها، لأن الشرك بالله والبعد عنه سبحانه هما السبب المباشر الذي يؤدي إلى زرع الخوف في النفوس وضياع الأمن من القلوب ومن المجتمعات، وقد كانت حياة الجاهلية أكبر دليل على ذلك حيث الفوضى والاضطراب الذي كان يخيم على مجتمعاتهم، وما يحدث فيها من الغارات على بعضهم البعض، والحروب القَبَلية التي تقوم بين القبائل ثَأْرًا لأتفه الأمور، فتمكث الأعوام

العديدة، أو تقوم بقصد السلب والنهب والقتل بدون ضابط أو زاجر أو رادع، ولم يكن أَمْنٌ ولا راحة ولا اطمئنان، كانت حياة القَبَيلة في قَلَق مستمر وخوف دائم، وقد وقعت حروب مدمرة وصراعات طاحنة، استمر بعضها عُقودًا من الزمن أهدرت فيها الدماء وسُلِبت فيها الأموال، وانتهكت فيها الأعراض، فجاء الإسلام بأمنه وإيمانه فأَمَّن الناس على أرواحهم وممتلكاتهم، وبَشَّرَهم المصطفى ﷺ إن هم استقاموا على دعامتي الأمن، الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، أن يتحقق لهم الأمن المنقطع النظير في دنيا الواقع، وأن يجعلهم الله خلفاء الأرض، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله تعالى والذئب على غنمه، يقول جل وعلا: [وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥] سورة النور، الآية (٥٥).

فالأمن من أعظم الآثار لحماية الفكر على المجتمع وقد تقدمت الاشارة إليه في المبحث السابق.

ومن الآثار: الشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع، وحالنا كأفراد نحو المجتمع كقوم استهموا في سفينة، فأناس في الأعلى وأناس في الأسفل، وهذا الشعور لا ينتج إلا عن رجل سلم فكره، وإذا كان الأمن وحمايته واجبًا من واجبات الدولة، فهو كذلك واجب من واجبتنا نحن كأفراد، فنحن الذين ننعم به، وحَقِيق علينا أن نشارك في صيانته وحمايته ؛ لأننا المنتفعون به أوَّلاً، والمستهدفون من الإضرار

به، وثانيًا: واجب علينا جميعًا أن نتنبه للخطط الماكرة، والأعمال الإجرامية المشينة التي تزعزع أمننا واستقرارنا، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة لدرئه ومحوه، وأن ينضم بعضنا إلى بعض انضمامًا مُخْلِصًا، ونُكَوِّن من أنفسنا وحدة مترابطة لدرء الفساد وعوامل الإجرام، واجب علينا أن نضع أيدينا في أيدي ولاة أمرنا تعاونًا معَهم على البِرِّ والتقوى، وأن يكون كل واحد منا رجلَ أَمْنٍ، وألا نستنكف أن نُبَلِّغَ عن مُدَبِّر المكائد والجرائم -ولو كان ابنا لنا أو أخا أو أبا أو أقرب قريب- نسأل الله بمنه وقوته أن يحفظ هذا البلد من شر الأشرار وكيد الفجار.

ومن الآثار: اجتماع الكلمة ونبذ الفرقة والاختلاف: فالاجتماع نعمة، والخلاف شتات وفرقة، وما فتئ القرآن يحذر من التنازع والخلاف، ويُذَكِّر بمصير المتنازعين، ويكفي أن يتذكر المسلم قول الله جل وعلا: [وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾] سورة الأنفال، الآية (٤٦).

ونهى رسول الله ﷺ عن كل أسباب الخلاف والتقاطع، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا**». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»[(١)].

ولا بد في سبيل توفير الأمن أن ندرك الأمن بمفهومه الشامل، فالحفاظ على الأمن الفكري والعقدي، وذلك بحماية العقول من الأفكار الخبيثة وحماية العقيدة من التصورات والمعتقدات الباطلة؛ لا يقل أَهَمِيَّةً عن الأمن على الأنفس

(١) رواه مسلم، برقم ٦٦٣٣، باب: كل المسلم على المسلم حرام، ج٨ ص١٠.

والممتلكات المادية، وعلينا مسؤولية جسيمة تجاه أبنائنا بأن نربيهم التربية الحسنة، ونرعاهم الرعاية الحقة، ونغرس فيهم أهمية الاجتماع ونبذ الفرقة، وأن الأمم الكافرة لم تتقدم إلا بسبب توحدها، لقول الله، جل وعلا: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦] سورة التحريم، الآية (٦)، ولقوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(١).

فالتربية والتعليم أصلان عظيمان في تنشئة الجيل، قال تعالى: [..وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩] سورة آل عمران، الآية (٧٩).

إننا نريد جِيلاً رَبَّانِيًّا مؤمنًا بالله، يحرص على الاجتماع وينبذ كل دواعي الاختلاف، ولا نريد في المقابل أن نرى شباباً غَالِيًا مُتَنَطِّعًا مُنفِّرًا مُكَفِّرًا يحمل السلاح في بلد الإسلام، ويُفَجِّر نفسه، ويقتل الأبرياء، ويهدد أمن المؤمنين، ويزعزع الثقة فيما بينهم، ويورث الفتنة، ويزرع الشر في المجتمع، والذي نخشاه على شبابنا مسلكان خطيران: مسلك الانحراف والفجور والإعراض عن طاعة الله وتعطيل أوامره وارتكاب نواهيه، ومسلك الغلو والانحراف والخروج على الولاة وجماعة المسلمين، ونبذ جماعتهم، وشق صفهم، وتفريق كلمتهم.

فعلينا أن نحافظ على شبابنا من الانزلاق في مهاوي الرذيلة والانجراف في

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٤٠٩، باب: العبد راع في مال سيده، ج٣ ص١٣٦.

الفكر التكفيري المنحرف، إن اهتزاز الأمن لا يخدم إلا اللصوص وقُطَّاع الطريق وتجار المُخَدِّرات، وأصحاب الأهواء، وإذا قوي الأمن انقطعت الشرور، وانْكَفَّ أهلها، وإذا فُقِدَتْ نعمة الأمن كيف يهنأ الناس بعيش ؟! وكيف يذهبون إلى المساجد ؟! بل كيف يؤدون فريضة الحج التي نادى بها إبراهيم عليه السلام ؟! بل كيف ينتشر العدل وتهنأ الحياة وتتوسع رقعة الإسلام ورسالة الدعوة إلى الله إذا اختل الأمن ؟! بل كيف يأمن الناس على أعراضهم وأموالهم التي جعل الله مَنْ دافع عنها وقُتِل دونها شهيدا ؟! كما قال ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**»(١)، والشواهد من حولنا كثيرة، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

يجب علينا أن نكون صَفًّا واحدًا متلاحمين، كالبنيان المرصوص مع ولاة أمرنا وعلمائنا في استتباب الأمن، والحرص على الاجتماع ونبذ الفرقة، والقضاء على هذه الظواهر المفزعة والأحداث المفجعة واستئصال شأفتها، يجب أن نكون جميعًا يدًا واحدة وعَيْنًا ساهرةً مع رجال الأمن للحفاظ على ديننا وبلادنا وأمننا، ومنهجُنا منهجُ الوسطية والاعتدال. ونصيحتي للشباب وفلذات الأكباد ألا ينخدعوا بالأفكار الهـَدَّامة، والمناهج الضَّالة، وألَّا ينساقوا وراء حرب الشبهات التي يروجها مَن قَلَّ فَهْمُه، وضل سَعْيُه.

ومن الآثار: شيوع المحبة والألفة وحسن الأخلاق، والتعامل الحسن، بين أفراد المجتمع: فصاحب الفكر السليم بعيد من تلك الأخلاق المذمومة على أي أحد أو مذهب أو ملة، ولذا أكد الإسلام على هذا الجانب المهم، ألا وهو التحلي

---

(١) متفق عليه، البخاري برقم ٢٤٨٠ باب من قتل دون ماله ج٣ ص١٣٦، ومسلم برقم ٢٢٦ باب على من قصد أخذ مال ج١ ص١٢٤.

بمكارم الأخلاق، وهي من الأسس التي تُبْنَي عليها المجتمعات الخيرة، فتزدهر بالسعادة والرخاء، وتنعم بالرفاهية والهناء والطمأنينة.

فصاحب الخلق الجم الذي جعل الآلفة والمحبة والتعامل الحسن هو مسلكه، تجده بعيد عن الأفكار المنحرفة، صاحب الخلق الحسن تجد فيه أثراً طيباً على فكره، حيث جعل الاستقامة على الخير هو هدفه المنشود، لذا لا يلتفت إلى أحد، صاحب الخلق الحسن بعيد عن التشكيك في النوايا، فيعامل الناس معاملة الظاهر وأمَّا الباطن فمردهُ إلى الله سبحانه، صاحب الخلق الحسن يتمثل ويتمسك بما كان عليه نبينا محمد ﷺ وكيف كانت معاملته لليهود والمنافقين والمشركين وجميع الأطياف المختلفة، وهو مبدأ التعايش وحسن المعاملة، قوله تعالى: [وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا] سورة الأسراء، الآية (٥٣).

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ – يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ شَهْرًا – وَمَنَ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامِ**»[1]، صاحب الخلق الحسن يمشي وينام

(١) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

بطمأنينة، فقد أراح فكره من العبث والأحقاد والتفكير فيما لا فائدة فيه، لذا تجد من يحمل في قلبه الأحقاد والضغائن على إخوانه المسلمين، لا يهنأ بنوم ولا يرتاح له جفن، حتى والعياذ بالله تجد المنحرف منهم يبدأ بالتصرفات والأعمال المشينة والتي منها ما نجده في قنوات التواصل الاجتماعي من الكتابة الحاقدة والمغرضة على بلادنا وولاة أمرنا، أو تصنيف الناس أو الهمز واللمز لعلمائنا ومحاولة إشاعة ذلك من باب النصح وإبراء الذمة، وما علم أن بفعله هذا يهدم قيم وأخلاق كان من الواجب أن يدعو لها ويرغب فيها، ومن الواجب أن نسلط الضوء على الأخلاق، فلها شأن عظيم ومكانة عالية، حيث دعا الإسلام المسلمين إلى التحلي بها، وتنميتها في نفوسهم؛ لأنها أحد الأصول الأربعة التي يقوم عليها دين الإسلام، الإيمان والأخلاق، والعبادات، والمعاملات ؛ ولذا نالت العناية الفائقة الكبرى والمنزلة العالية الرفيعة في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ.

تعريف الأخلاق:

الأخلاق: جمع خُلُق (بضم اللام وسكونها): الدِّين والطبع والسجية، وحقيقته - كما يقول ابن منظور: «أنه صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخَلقِ لصورته الظاهرة»(١).

ويقول الغزالي: «الخلقُ عبارة عن هيئةٍ في النَّفس راسخة، عنها تصدر الأفعالُ بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر ورويَّة»(٢).

والنزعة الأخلاقية شديدةُ الارتباط بالنزعةِ الدينية عند الإنسان، فلا دِينَ

(١) لسان العرب، ج٢ ص١٢٤٥، تحقيق عبدالله علي الكبير، ط دار المعارف القاهرة.

(٢) إحياء علوم الدين، ج٣ ص٥٣.

بدون أخلاق، ولا أخلاقَ بدون دين، فالتلازم بينهما ضروري ؛ لأنَّ كلاً منهما يكمِّل الآخر؛ لقول رسول الله ﷺ: «**إنما بُعثتُ لأتممَ مكارم الأخلاق**»(١)، فكأنما الدين الأخلاق، وقد امتدح الله نبيَّه الكريم بحسنِ خلقه ؛ فقال سبحانه : [وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾] سورة القلم، الآية (٤).

وهناك آياتٌ كثيرة تدعو إلى التحلِّي بمكارمِ الأخلاق ؛ فمن ذلك قولُه تعالى: [خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾] سورة الأعراف، الآية (١٩٩)، وقد رُوي عن جعفر الصادق أنه قال: «ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها»(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: [..وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا يَعْلَمُونَ.﴿٨٣﴾] سورة البقرة، الآية (٨٣)، وقوله تعالى: [إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾] سورة الحجرات، الآية (١٠)، وقوله تعالى: [۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾] سورة النساء، الآية (١١٤)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في التحلي بالأخلاق الكريمة والصفات الحسنة، والتي تعود بالنفع على الفرد والمجتمع والأمة.

وحسن الخلق له مكانةٌ عظيمة، ومنزلة رفيعة في دينِ الإسلام، قال ابن

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم ٨٩٥٢ مسند أبي هريرة -رضي الله عنه - ج١٤ ص٥٢١، وصححه الألباني في سلسلته برقم ٤٥ ج١ ص١١٢.

(٢) انظر، أحمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤ ص٣١٨، دار إحياء التراث لبنان، ط الأولى ١٤٢٢هـ.

القيم: «الدين كله خلق ؛ فمن زاد عليك في الخلقِ، زاد عليك في الدين»(١).

كما جاءت السنة مبينة الأجرَ العظيم لمن اتصف بمكارم الأخلاق ؛ ومما ورد في ذلك قولُه ﷺ: «**البر حسن الخلق**»(٢)، و عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «**ما من شيء أثقل في ميزانِ المؤمن يومَ القيامة من حسنِ الخلق، وإنَّ الله ليبغض الفاحشَ البذيء**»(٣).

ومن ذلك قوله ﷺ وقد سئل عن أكثر ما يُدخل النَّاسَ الجنةَ، فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»(٤).

وعن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ المؤمن لَيدركُ بحسنِ خلقه درجةَ الصائم القائم**»(٥).

وعن النواس بن سمعان – رضي الله عنه – قال: سألت رسولَ الله ﷺ عن البرِّ والإثم، قال ﷺ: «**البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرِك وكرهتَ أن يطَّلعَ النَّاس عليه**»(٦).

وهناك ارتباط وثيق بين الأخلاق والإيمان، وكل عمل يقوم به العبد المسلم

---

(١) انظر، ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، باب فضل الدين كله خلق، ج٢ ص٢٩٤.

(٢) أخرجه مسلم برقم ٦٦٠٨، باب: تفسير البر والإثم ج٨ ص٦.

(٣) رواه أحمد في مسنده، برقم ٢٧٥١٧، ج٤٥ ص٥١٠، وصححه الألباني في جامعه، برقم ٥٣٩٠، ج٢ ص٩٥٠.

(٤) رواه أحمد في مسنده، برقم ٩٠٩٦، ج١٥ ص ٤٨، وصححه الألباني في السلسلة، برقم ٩٧٧، ج٢ ص٦٦٩.

(٥) رواه أحمد برقم ٢٥٠١٣، ج٤١ ص ٤٧٠، وصححه الألباني في السلسلة، ٧٩٥، ج٢ ص٤٢١.

(٦) سبق تخريجه، ص ١٥٨

يحتاج إلى الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة، ولاشك أن مَنْ فقد الإيمان والتقوى فَقَدْ فَقَدَ تلك الأخلاق، وكلما كان المؤمن أكمل أخلاقاً كان أكثر إيماناً، والالتزام بمكارم الأخلاق فيه تقوية لإرادة الإنسان وتمرينها على حُبِّ الخير وفعله، والبعد عن الشر وتركه، وبذلك تتحقق سعادة القلب، وعلى رأس تلك الأخلاق: الصدق، الصبر، الأمانة، التواضع، المحبة، وصفاء القلب، وغيرها.

بل إن الأخلاق الكريمة تدعو إليها الفِطَرُ السليمة، والعقلاء يُجْمِعُون على أن الصدق والوفاء بالعهد والمحبة والصبر وبذل المعروف -أخلاق فاضلة يستحق صاحبها التكريم والثناء، وأن الكذب والغدر والحقد والكراهية - أخلاق سيئة يُذَمُّ صاحبها، والدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وإخلاص العمل له وإلى دينه تحتاج إلى الأخلاق الحميدة، والصفات الحسنة، ويصعب توفر تلك الأخلاق فيمَنْ يفقد الإيمان والتقوى، أو فكره ملوث بالأفكار الفاسدة فكر التكفير أو الإلحاد، ورسول الله ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم أجمعين - أفضل مَنْ دعوا إلى الله تعالى بأخلاقهم الإسلامية الحميدة وصفاتهم الحسنة، قال الله تعالى: [مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ..﴿٢٩﴾]سورة محمد، الآية (٢٩).

فحاجة المؤمن إلى الاقتداء بهم كحاجته إلى الطعام والشراب بل أشد، وأهداف العقيدة السليمة يرأسها دعوة العبد إلى التحلي بالأخلاق الحسنة ليفوز بسعادة الدارين، قال الله تعالى: [لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾] سورة الأحزاب، الآية (٢٩).

فالعقيدة هي التي تقود العبد، فإذا صحت العقيدة وكمل الإيمان حسنت

الأخلاق، والعكس يؤدي به إلى التخلق بالأخلاق السيئة والأفعال القبيحة، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**»(١).

وقد يتصور بعض الناس أن حُسن الخلق محصور في الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة فقط، والحقيقة أن حُسن الخلق أوسع من ذلك، فهو يعني إضافة إلى الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، التواضع وعدم التكبر ولين الجانب، ومحبة الناس وعدم الحقد من الأخلاق الحسنة والأفعال الحميدة، قال الغزالي - رحمه الله -: «أَدْرَكْنَا السَّلَفَ وَهُمْ لَا يَرَوْنَ الْعِبَادَةَ فِي الصَّوْمِ وَلَا فِي الصَّلَاةِ وَلَكِنْ فِي الْكَفِّ عَنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ»(٢).

إن أي مجتمع لا يمكن أن يعيش أفراده بأمان وانسجام ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة، فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية ؛ لأن بها يتم إصلاح الفرد الذي هو الخطوة الأولى في إصلاح المجتمع كله، وصدق القائل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا (٣)

إذ كيف يكون هناك ثقة متبادلة بين أفراد المجتمع ؟لولا فضيلة الصدق التي هي أساس الإسلام، وعقد الحياة في حياة الإسلام الاجتماعية.

---

(١) متفق عليه، البخاري برقم ٦٨١٠ باب: إثم الزناة ج٨ ص١٦٤، ومسلم برقم ١٢٠، باب نفي الإيمان عن الزاني والسارق، ج١ ص٥٥.

(٢) انظر، إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي، ج ٣ ص١٤٣.

(٣) شعر شوقيات في ميزان النقد، لمحمد مصطفى المجذوب ج١ ص٨٥ ط الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط السابعة ١٣٩٥ هـ.

وكيف يكون تعايش بين الناس في أمن وسلام ؟لولا فضيلة الأمانة، وكيف نتصور مجتمعا مثاليا، قادرا على قيادة العالم نحو الأفضل بدون مكارم الأخلاق ؟ إذا فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية في كل عصر من العصور حتى تصير أفراد المجتمع أفرادا مسؤولين وواعين، فالفرد المتخلق بمكارم الأخلاق لابد أن يؤدي ما عليه من حقوق اللهّ عز وجل، وحقوق الناس، فإن كان موظفا أو مسؤولا فلابد أن يتقي اللهّ في رعيته وفي أسرته، وأن يؤدي لكل ذي حق حقه، فكل إنسان مكلف ومأمور بالتخلق بأخلاق النبي ﷺ وإحياء سنته الشريفة.

ونبينا محمد ﷺ الذي يجسد أخلاق القرآن العالية ما أثَّر في أصحابه ومجتمعه إلا بأخلاقه السامية، فقد استطاع بأخلاقه العالية أن يُغير قبائل العرب من أخلاق الغلظة والتوحش إلى أخلاق السيادة والقيادة، حتى صاروا أعظم خَلق في العالم، ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة، المتعصبين لعاداتهم المعاندين في عصبيتهم وخصامهم كيف رفع هذا الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية واقتلعها في زمان قليل دفعة واحدة ؟ وجهزهم بأخلاق حسنة عالية؛ فصيرهم معلمي العالم الإنساني وأساتذة الأمم المتمدنة ؟!

إنّ الأخلاق المذمومة موجودة في كثير من النّاس، غالبة عليهم، مالكة لهم، بل قلّما يوجد فيهم مَنْ يخلو من خلق سيء أو مكروه، ويَسْلم من جميع العيوب، ولكنّهم يتفاضلون في ذلك، وكذلك في الأخلاق المحمودة قد يختلف النّاس ويتفاضلون، إلّا أنّ المجبولين على الأخلاق الحسنة قليلون جدّا، وأمّا المجبولون على الأخلاق السّيّئة فأكثر النّاس؛ وما ذلك إلّا لأنّ الإنسان إذا استرسل مع طبعه، ولم يستعمل الفكر ولا التّمييز، ولا الحياء ولا التّحفّظ، كان الغالب عليه

أخلاق البهائم، لأنّ الإنسان إنّما يتميّز على البهائم بالفكر والتّمييز ؛ فإذا لم يستعملهما كان مشاركا للبهائم في عاداتها(١).

فبأخلاقه السامية أيضا تغلب على الأفكار، وتحبب إلى الأرواح، وتسلط على الطبائع وقلع من أعماق قلوبهم العادات والأخلاق الوحشية المألوفة الراسخة المستمرة الكثيرة، ثم غرس في موضعها في غاية الإحكام والقوة – كأنها اختلطت بلحمهم ودمهم – أخلاقا عالية وعادات حسنة... وقد بَدَّل قسوة قلوب قوم خامدين في زوايا الوحشة بحسيات رقيقة وأظهر جوهر إنسانيتهم، ثم أخرجهم من زوايا النسيان ورقى بهم إلى أوجّ المدنية وصيرهم معلمي عالمهم، وأسس لهم دولة عظيمة في زمن قليل، فأصبحت كالشعلة المستنيرة ﷺ والتحلي بمكارم الأخلاق يؤدي إلى إزالة كثير من الأمراض المنتشرة في المجتمع، من الكراهية وسوء الظن والنميمة والتجسس والغيبة، والصدق: هو أساس الإسلام... فعلينا إذًا أن نحيي الصدق -الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية -في نفوسنا ونداوي به أمراضنا، وخطورة الكذب في المجتمع: ما روي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ من حديث عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الصِّدْقَ بِرٌّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ فُجُورٌ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا**»(٢)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ **وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٤٢﴾ ﴾ سورة

(١) انظر، تهذيب الأخلاق، لأبي عثمان الجاحظ، دار الصحابة للتراث، ط الأولى ١٤١٠هـ.

(٢) رواه مسلم برقم ٦٧٣١، باب ما جاء في الصدق والكذب ج٨ ص٢٩.

البقرة، الآية (٤٢)، أَيْ لَا تَخْلِطُوا الصِّدْقَ بِالْكَذِبِ،

وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ: الْكَذَّابُ لِصٌّ؛ لِأَنَّ اللِّصَّ يَسْرِقُ مَالَك، وَالْكَذَّابُ يَسْرِقُ عَقْلَك. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْخَرَسُ خَيْرٌ مِنْ الْكَذِبِ وَصِدْقُ اللِّسَانِ أَوَّلُ السَّعَادَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: الصَّادِقُ مُصَانٌ خَلِيلٌ، وَالْكَاذِبُ مُهَانٌ ذَلِيلٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: لَا سَيْفَ كَالْحَقِّ، وَلَا عَوْنَ كَالصِّدْقِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

وَمَا شَيءٌ إذَا فَكَّرْتَ فِيهِ ... بِأَذْهَبَ لِلْمُرُوءَةِ وَالْجَمَالِ

مِنْ الْكَذِبِ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ ... وَأَبْعَدَ بِالْبَهَاءِ مِنْ الرِّجَالِ

وَالْكَذِبُ جِمَاعُ كُلِّ شَرٍّ، وَأَصْلُ كُلِّ ذَمٍّ لِسُوءِ عَوَاقِبِهِ، وَخُبْثِ نَتَائِجِهِ ؛ لِأَنَّهُ يُنْتِجُ النَّمِيمَةَ، وَالنَّمِيمَةُ تُنْتِجُ الْبَغْضَاءَ، وَالْبَغْضَاءُ تُؤَوِّلُ إلَى الْعَدَاوَةِ، وَلَيْسَ مَعَ الْعَدَاوَةِ أَمْنٌ وَلَا رَاحَةٌ[1].

ومن صور الكذب على المجتمع: ما يُبَثُّ من رسائل مغرضة على أهله تتضمن إثارة الشائعات والشكوك حول بعض الجهات الحكومية أو أجهزة الدولة، أنها لا تقوم بدورها المناط بها في حماية واستقرار المدينة أو المجتمع، وهذا كله من الخيانة، بل الواجب الوقوف مع الدولة في دورها ومحاربة كل من يكتب أو يغرد على مجتمع ما، وأن لكل شيء بابه الذي يُدْخَل منه لا من خلال الإثارة والزعزعة.

لقد انتشر الإسلام في ربوع العالم بفضل ما كان يحمله تجار المسلمين من الاخلاق الكريمة، والتعامل الحسن، وقد أسلم كثير من المشركين بمجرد أنهم

(١) انظر، أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، ج١ ص ٢٦١، دار مكتبة الحياة، ط ١٩٨٦ م.

شاهدوا خلق الرسول الكريم، وسمعوا سيرته الطيبة مع أنهم لم يسمعوا منه حديثا، فقد كان ﷺ نموذجا يُحتذى به في الخُلق مع نفسه، ومع زوجاته، ومع جيرانه، ومع ضعفاء المسلمين، ومع جهلتهم، بل وحتى مع الكافرين، فتعامل مع المنافقين الذين آذوه بأشد الأذى، والذي تعرض فيه ﷺ وأوذي في عرضه، بأحسن التعامل، حتى أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول يا رسول الله ائذن لي بأن أقطع رأس عبدالله بن أبي سلول، فماذا كان رده عليه الصلاة والسلام؟ فقال: «**لا يا عمر، ماذا يقول الناس؟ يقتل محمد أصحابه !!**» [(١)]، تعامل مع المخالفين برقي وتعايش سلمي ﷺ، فعلينا معاشر المسلمين، وخصوصا شبابنا، أن نعكس صورة الإسلام الناصعة من خلال تعاملنا، وأخلاقنا وسيرتنا بين الناس، نكون قدوة ومثالين في مجتمعنا، لا أن يُجَرَّ أَحَدٌ للهاوية، أو تكونوا أدوات، وأجندة للأعداء من خلال التفجير، أو استخدام ألفاظ التكفير على علمائنا وولاة أمورنا، وأن ندعوا بأخلاقنا وسلوكنا قبل كلامنا وقولنا وحديثنا ؛ لأن الناس مجبولة على التأثر بالفعل والعمل أكثر من القول والحديث، وإن لم يتغير سلوكنا وحالنا فلن يتأثر بنا أحدٌ- ولو زخرفنا القول، وأبدعنا في الكلام – كما أن التزام الناس بمكارم الأخلاق يؤدي إلى تقدم المجتمع وسعادته، وأن الغرب ما تفوقوا علينا إلا باتخاذهم ببعض المكارم التي يأمر به ديننا الحنيف، والناظر في بعض الدول المتقدمة الكبرى، مثل: اليابان والصين وغيرها يرى عجبا في التعامل بالنظام وحسن الأخلاق والصدق في المواعيد، في المقابل ابتعد شباب المسلمين وأهمل تلك الأخلاق، فنتج عن ذلك التأخر في

(١) رواه مسلم، برقم ٦٦٧٥، باب النهي عن دعوى الجاهلية، ج٨ ص ١٩.

النمو المعرفي وغير ذلك، والمسلمون اليوم لو تشبعوا بأخلاق القرآن لساد الإسلام في العالم، ولدخل الناس في دين اللهّ أفواجا، ولو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام، وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام.

وما ذكرنا من بعض الأمور والتي تقوي بعضها بعضا كالبنيان المرصوص -تؤكد أن الأخلاق لها أثر بالغ على الفرد وعلى المجتمع، وهي ضرورة اجتماعية، وأنه لا يمكن لأي مجتمع يريد التوازن في حياته أن يعيش بدونها، وأن التحلي بمكارم الأخلاق يؤدي إلى سعادة المجتمع وتقدمه وانسجامه، والاعتزاز بالنفس والتواضع، وأن أي خلل فيها، يؤدي إلى خلل في المجتمع وفساده، وأن شعوب الأمة الإسلامية لو التزمت بمكارم الأخلاق التي يدعو إليها الإسلام لأصبحوا سادة العالم، ولما بقي أحد على وجه الأرض إلا وتبنى هذا الدِّين، وأن هذه الخصال الحميدة تبقى حصنا حصينا للمسلم في هذا الوقت الذي يتسم بالدمار، أخلاقيا وروحيا، وكم يحزن قلبك عندما ترى من يَدَّعي الإسلام ويقوم بمظاهر مخالفة لدين الله، مثل: القتل والتفجير لأناس آمنين أو تفجير مساجد، أو قتل رجال أمنٍ يقومون بواجبهم، فماذا يا ترى يقول ذلك الغربي ؟ أهذا هو الإسلام؟!!

وحفظ الجوار من صفات المؤمنين التي أوصاهم بها الله حتى ولو كان الجار المستجير من المشركين أو المخالفين في الدين، قال تعالى: [وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾] سورة التوبة الآية (٦)، وقد أوصى القرآن الإنسان بجاره خيراً، وأن يحسن إليه كما يحسن إلى والديه وذويه وأقربائه، وأيًّا كان هذا الجار: مسلم أو يهودي أو نصراني أو بوذي، قال تعالى: [۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾]سورة النساء، الآية (٣٦)، ولا ريبَ أنَّ أثقلَ ما على الطبيعة البشرية تغيير الأخلاق التي طُبعت عليها النفس، إلا أنَّ ذلك ليس متعذرًا ولا مستحيلاً، ولأهمية هذا الموضوع توسعت في هذه الجزئية. **ولابد أن نأخذ ببعض الوسائل والأسباب التي يستطيعُ الإنسان من خلالها أن يكتسبَ حسنَ الخلق؛ ومن ذلك ما يلي:**

١. **سلامة العقيدة** : فشأنُ العقيدةِ عظيم، وأمرها جلل، فالسلوك – في الغالب – ثمرة لما يحمله الإنسانُ من فكر، وما يعتقدُه من معتقد، وما يدينُ به من دين، والانحرافُ في السلوكِ إنما هو ناتجٌ عن خللٍ في المعتقد، ثم إنَّ العقيدةَ هي الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا، فإذا صحتِ العقيدةُ حسنت الأخلاق تبعًا لذلك.

٢. **الدعاء** : والدعاءُ بابٌ عظيم، فإذا فُتح للعبدِ تتابعت عليه الخيراتُ، وانهالت عليه البركات، فمَنْ رغب في التحلي بمكارم الأخلاق، ورغب في التخلي عن مساوئ الأخلاق، فلْيلجأ إلى ربه، وليرفعْ إليه أكفَّ الضراعة؛ ليرزقَه حسنَ الخلق، ويصرف عنه سيئه ؛ ولهذا كان النبي – عليه الصَّلاة والسلام – كثيرَ الضراعة إلى ربه يسأله أن يرزقه حسن

الخلق، وكان يقول في دعاء الاستفتاح: «اللهم اهدني لأحسنِ الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرفُ عني سيئها إلا أنت»[١]، وكان من دعائه – عليه الصَّلاة والسلام –: «**اللهم جنبني منكراتِ الأخلاق والأهواء، والأعمال والأدواء**»[٢]، وكان يقول: «اللهم إني أعوذُ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذابِ القبر، ومن فتنةِ المحيا والممات »[٣].

٣. **المجاهدة** : ذلك أنَّ الخلق الحسن نوعٌ من الهدايةِ يحصلُ عليه المرء بالمجاهدة، قال – عز وجل:[وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾] سورة العنكبوت، الآية (٦٩)، فمن جاهد نفسَه على التحلِّي بالفضائل، وجاهدها على التخلي عن الرذائلِ، حصل له خيرٌ كثير، واندفع عنه شر مستطير.

٤. **المحاسبة**: وذلك بنقدِ النفس إذا ارتكبت أخلاقًا ذميمة، وحملها على ألا تعود إلى تلك الأخلاقِ مرةً أخرى، مع أخذها بمبدأ الثوابِ إذا أحسنت، وأخذها بمبدأ العقابِ إذا توانت وقصَّرت، فإذا أحسنت أراحها وأجمَّها، وأرسلها على سَجِيتها بعضَ الوقت في المباح، وإذا أساءت وقصرت أخذها بالحزمِ والجد، وحرمها من بعضِ ما تريد.

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٠١ باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه ج١ ص٥٣٤.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، برقم ٩٦٠، باب ذكر ما يستحب للمرء أن يسأل الله، جلا وعلا،ج٣ ص٢٤٠، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، ج٢ ص٢٩٨، ط دار باوزير للنشر والتوزيع، ط الأولى ١٤٢٤ه.

(٣) رواه مسلم، برقم ٦٩٧٢، باب الاستعاذة، ج٨ ص٧٥.

٥. **التفكر في الآثار المترتبة على حسن الخلق** : فإنَّ معرفة ثمرات الأشياء، واستحضار حسن عواقبها من أكبر الدَّواعي إلى فعلِها وتمثلها، والسعي إليها، فكلما تصعَّبتِ النَّفسُ، فذكرْها تلك الآثار، وما تجنيه بالصَّبر من جميلِ الثمار، فإنها حينئذٍ تلين، وتنقادُ طائعة منشرحة، فإنَّ المرء إذا رغب في مكارم الأخلاق، وأدرك أنها من أولى ما اكتسبتْها النفوس، وأجلّ غنيمة غنمها الموفقون، سهُل عليه نيلها واكتسابها.

٦. **النظر في عواقبِ سوء الخلق**: وذلك بتأمل ما يجلبه سوءُ الخلقِ من الأسف الدائم، والهمِّ الملازم، والحسرة والنَّدامة، والبُغض في قلوبِ الخلق، فذلك يدعو المرءَ إلى أن يقصرَ عن مساوئ الأخلاق، وينبعث إلى محاسنها.

٧. **الحذر من اليأسِ من إصلاح النفس**: فهناك مَنْ إذا ابتلي بمساوئ الأخلاق، ظنَّ أنَّ ذلك الأمرَ ضربةُ لا تزول، وأنه وصمة عار لا تنمحي، وهناك من إذا حاول التخلصَ من عيوبِه مرةً أو أكثر فلم يفلح، يأس من إصلاحِ نفسه، وترك المحاولةَ إلى غير رجعة، وهذا الأمرُ لا يحسنُ بالمسلم، ولا يليقُ به أبدًا، فلا ينبغي له أن يرضى لنفسِه بالدُّون، وأن يتركَ رياضةَ نفسِه، زعمًا منه أنَّ تبدُّل الحال من المحال.

٨. **علو الهمة**: فعلو الهمةِ يستلزم الجد والإباء،، والترفع عن الدنايا، والصغائر، ومحقرات الأمور، والهمةُ العالية لا تزالُ بصاحبِها تضربه بسياط اللوم والتأنيب، وتزجرُه عن مواقفِ الذل، واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل، حتى ترفعه من أدنى دركاتِ الحضيض إلى أعلى مقامات المجدِ والسؤدد.

قال ابن القيم: «فمَنْ علت همتُه، وخشعت نفسُه، اتَّصَف بكلِّ خلق جميل، ومن دنت همتُه، وطغت نفسُه، اتصفَ بكلِّ خلق رذيل»[(١)].

٩. **الصبر** : فالصبرُ من الأسسِ الأخلاقية التي يقومُ عليها الخلق الحسن، فالصبر يحملُ على الاحتمال، وكظمِ الغيظ، وكفِّ الأذى، والحلم، والأناة، والرفق، وترك الطيش والعجلة، وقَلَّ مَنْ جدَّ في أمر تَطَلَّبَه واستصحب الصبر، إلا فاز بالظفر.

١٠. **العفة** : فهي تحملُ على اجتنابِ الرذائل والقبائح من القولِ والفعل، وتحمل على الحياء، وهو رأسُ كلِّ خير، وتمنع من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة.

١١. **الشجاعة**: فهي تحملُ على عزةِ النفس، وإباءة الضيم، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذلِ والندى، الذي هو شجاعة النفس، وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وهي تحملُ صاحبَها على كظم الغيظ، والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن الطيش.

١٢. **العدل**: فهو يحمل على اعتدالِ الأخلاق، وتوسطها بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحمل على خلقِ الجود الذي هو توسطٌ بين البخلِ والإسراف، وعلى خلقِ التواضع الذي هو توسطٌ بين الذِّلةِ والكبر، وعلى خلقِ الشجاعة الذي هو توسطٌ بين الجبن والتهور، وعلى خلقِ الحلم الذي هو توسط بين الغضبِ والمهانة وسقوط النفس.

---

(١) ابن القيم الجوزية، الفوائد، ج١ ص١٤٤، ط دار الكتب العلمية - بيروت، ط الثانية ١٣٩٣ هـ.

١٣. **تكلف البِشر والطلاقة، وتجنب العبوس والتقطيب** : قال ابن حبان: «البَشاشةُ إدامُ العلماء، وسجيةُ الحكماء ؛ لأنَّ البِشْرَ يطفئ نارَ المعاندة، ويحرقُ هيجانَ المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي»(١).

١٤. **التغاضي والتغافل** : فذلك من أخلاقِ الأكابر والعظماء، وهو مما يعينُ على استبقاءِ المودة واستجلابها، وعلى وأْد العداوةِ وإخلاد المباغضة، ثم إنه دليلٌ على سمو النفس، وشفافيتها، وهو مما يرفعُ المنزلة، ويُعْلِي المكانة.

١٥. **الحِلم**: فالحلمُ من أشرفِ الأخلاق، وأحقها بذوي الألباب ؛ لما فيه من سلامةِ العرض، وراحةِ الجسد، واجتلاب الحمد، وحدُّ الحلم ضبطُ النفس عند هيجانِ الغضب.

١٦. **الإعراضُ عن الجاهلين**: فمَنْ أعرض عن الجاهلين، حمى عِرضَه، وأراح نفسَه، وسلم من سماعِ ما يؤذيه، قال عز وجل :[خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾] سورة الأعراف، الآية (١٩٩).

١٧. **الترفع عن السِّباب**: فذلك من شرفِ النفس، وعلو الهمة.

١٨. **نسيان الأذية**: وذلك بأن تنسى أذيةَ من نالك بسوء ؛ ليصفو قلبُك له، ولا تستوحش منه، فمَنْ تذكَّرَ إساءةَ إخوانه، لم تَصْفُ له مودتُهم، ومَنْ تذكر إساءةَ النَّاس إليه، لم يطبْ له العيش معهم ؛ فانسَ ما استطعتَ النسيان.

---

(١) انظر روضة ونزهة الفضلاء، ج١ ص٧٥، لمحمد بن حبان البستي، ط دار الكتب العلمية بيروت.

١٩. **العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان** : فهذا سببٌ لعلو المنزلة، ورفعةِ الدرجة، وفيه من الطمأنينة، والسكينة، والحلاوة، وشرف النفس، وعزها، وترفعها عن تشفيها بالانتقام، ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

٢٠. **لزوم الرفق** : قال ﷺ: «**إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزعُ من شيء إلا شانه**»(١)، وصح عنه ﷺ أنه قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَّ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»(٢).

٢١. **لزوم التواضع** : فالتواضعُ في حقيقته هو بذلُ الاحترام، والعطف، والمجاملة لمن يستحقُّ ذلك .

٢٢. **استعمال المداراة**: فالنَّاس خُلقوا للاجتماعِ لا للعزلة، وللتعارفِ لا للتناكر، وللتعاون لا لينفرد كلُّ واحد بمرافق حياته، وللإنسان عوارضُ نفسية؛ كالحب والبغض، والرضا والغضب، والاستحسان والاستهجان.

فلو سار الإنسانُ على أن يكاشفَ النَّاس بكلِّ ما يعرض له من هذه الشؤون في كلِّ وقت وعلى أي حال ؛ لاختلَّ الاجتماع، ولم يحصل التعارف، وانقبضت الأيدي عن التعاون.

فكان من حكمةِ الله في خلقِه أن هَيَّأ الإنسانَ لأدب يتحامى به، ما يحدث

---

(١) رواه مسلم، برقم ٦٦٩٤، باب فضل الرفق، ج٨ ص٢٢.

(٢) رواه مسلم، برقم ٦٦٩٣، باب فضل الرفق، ج٨ ص ٢٢.

تقاطعًا، أو يدعو إلى تخاذل، ذلك الأدب هو المداراة، فالمداراةُ مما يزرعُ المودةَ والألفة، ويجمع الآراءَ المشتتة، والقلوب المتنافرة .

والمداراة ترجعُ إلى حسنِ اللقاء، ولين الكلام، وتجنب ما يُشعر ببغض أو غضب، أو استنكار إلا في أحوالٍ يكون الإشعار به خيرًا من كتمانه.

٢٣.**مصاحبة الأخيارِ وأهل الأخلاق الفاضلة:** فهذا الأمرُ من أعظمِ ما يربي على مكارمِ الأخلاق، وعلى رسوخها في النفس، فالمرء مُوْلَعٌ بمحاكاةِ مَنْ حوله، شديد التأثر بمَنْ يصاحبه.

٢٤.**توطين النفس على الاعتدالِ حالَ السَّراء والضَّراء:** فيحسن بالعاقلِ الذي يروم نيلَ المعالي، واكتساب الفضائل - أن يوطنَ نفسَه على الاعتدالِ حال السَّراء والضَّراء.

إذًا يا لها من نتائج وآثار عظيمة على المجتمع إذا قام أفراده بحماية أفكارهم من كل معتقد فاسد وشبهة مضللة وفكر منحرف. ويكمن واجب الأفراد بالتواصي فيما بينهم بالخير والنصح، ومحاربة كل فكر دخيل، والعمل والتعاون مع الجهات المسؤولة فيما يعود على بلادنا بالأمن والخير وحماية المجتمع من الأفكار المضلَّة، وثمرات الفكر المنحرف. ولكي يكون الفكر مستقيمًا، فلابد من

أن يلتزم جميع أفراد المجتمع بمنهج الإسلام وحدوده، فإذا لم يلتزم الإنسان بذلك، فلعلَّه ينتج فكرًا منحرفًا، يوقع الشك والريبة في قلوب الناس، ويحملهم على البعد عن الصراط المستقيم، والمنهج الحق، والخلق القويم.

❊❊❊

الخاتمة

في ختام هذا البحث؛ فإنني أحمد الله العلي القدير الذي أعانني على إتمام هذا البحث، حتى خرج بهذه الصورة المتواضعة، والعمل البشري يعتريه الخلل والتقصير، سائلا المولى سبحانه القبول والاخلاص، وبعد هذا العرض المفصل يمكننا أن نستخلص النتائج والتوصيات الآتية:

- **النتائج:**

١. إن حفظ العقل من الضروريات التي جاء الإسلام بالحفاظ عليها، وفكر الإنسان مطالب بحمايته من الشبهات والشهوات، فهو مؤتمن على فكره.

٢. التحزب المقيت للرأي أو المذهب وتقليد الأسلاف، مما يفسد الفكر ويجره للغلو والتعصب المذموم، ولذا ينبغي حمايةُ الفكرِ من هذه اللوثة.

٣. القول على الله بغير علم أو الفتوى من غير علم مما ينبغي اجتنابه لحماية الفكر من الانحراف والزيغ والهلاك.

٤. تقليد الكفار والتشبه بهم ومشاركتهم في العادات والتقاليد خطره عظيم على الفكر ومما يؤدي إلى الانحراف العقدي والفكري.

٥. إعمال العقل والتفكر والتأمل والبعد عن الظن يجعل الفكر سليما محصنا من عوامل الزيغ والانحراف.

٦. الحاجة الماسة للعلماء والدعاة وطلبة العلم، للقرب من الشباب، ودفع الشبهات عنهم والمعالجة الناجعة لمواضيع التكفير والتفسيق والإلحاد.

٧. الثبات على الحق والاستمرار عليه من أعظم الكرامات على العبد والتي منها حفظه للفكر وحمايته والثبات على المبدأ الصحيح.

٨. استغلال جانب القنوات التواصل الاجتماعي المتنوعة في تصحيح الأفكار ومحاربة الأفكار الملوثة، والقنوات المشبوهة.

٩. التحلي بالأخلاق العظيمة والقيم النبيلة عامل كبير في اصلاح الفكر وحصول الأمن في المجتمع.

١٠. الحقد والكراهية من الأخلاق المذمومة الجالبة لكل شر وبها يختل الأمن في المجتمعات.

التوصيات:

١. إجراء المزيد من البحوث والدراسات حول حماية الفكر في القرآن الكريم وبيان أن الإسلام اعتنى به عناية فائقة، فبصلاح الفكر يصلح المرء وبفساده يفسد الإنسان.

٢. القيام بمشروع متكامل من خلال القنوات الفضائية، وقنوات التواصل الاجتماعي لحماية الفكر من خلال عقد المؤتمرات والندوات

والبرامج الشبابية، بما يكون طريقا لتحقيق سلامة الفكر للشباب ويدحض شبهات الخارجين.

٣. الإسهام في التحصين الفكري المستمر لأجيال المسلمين من خلال جهود وزارة التعليم ووزارة الإعلام وجهود العلماء والمفكرين نحو هذا الموضوع.

❊❊❊

المراجع

١. **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**، أبو عبد الله عبيد الله العكبري الحنبلي (٣٨٧ هـ)، دار الراية – الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.

٢. **إحياء علوم الدين**، زين الدين أبو حامد الغزالي (٥٠٥ هـ)، دار المعرفة – بيروت ١٤٠٢ هـ.

٣. **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، محمد بن مفلح المقدسي (٧٦٣ هـ)، عالم الكتب (بدون تاريخ).

٤. **أدب الدنيا والدين**، علي بن محمد أبو الحسن الماوردي (٤٥٠ هـ)، دار مكتبة الحياة، طباعة عام ١٩٨٦م.

٥. **الأدلة العقلية والنقلية على أصول الاعتقاد**، سعود العريفي، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة، الطبعة الأولى – ١٤١٩ هـ.

٦. **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠ هـ)، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ.

٧. **أسباب اختلاف الفقهاء**، للدكتور عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٣١هـ.

٨. **أسد الغابة**، علي بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير (٦٣٠ هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطباعة الأولى ١٤١٥ هـ.

٩. **الأصمعيات**، عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعي (٢١٦ هـ)، دار المعارف – مصر، الطبعة السابعة ١٩٩٣م.

١٠. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي (١٣٩٣ هـ)، دار الفكر للطباعة، بيروت – لبنان، عام ١٤١٥ هـ.

١١. **الاعتصام**، إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي (٧٩٠ هـ)، دار ابن عفان – السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٢. **الأعلام**، خير الدين بن محمود الزركلي (١٣٩٦ هـ)، دار العلم للملايين، الطباعة الخامسة عشر، عام ٢٠٠٢ م.

١٣. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (٧٥١ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٤. **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (٧٥١ هـ)، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

١٥. **اقتضاء الصراط المستقيم**، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، دار عالم الكتب - بيروت، الطبعة السابعة ١٤١٩هـ.

١٦. **الأمن الفكري**، عبدالرحمن السديس، مركز الدراسات والبحوث، ١٤٢٦هـ.

١٧. **الأمن الفكري ما هيته وضوابطه**، د.عبد الرحمن اللويحق، جامعة نايف العربية، مركز الدراسات والبحوث – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

١٨. **الأمن الفكري وعنايته بالمملكة**، عبدالله التركي، مطابع رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٣هـ.

١٩. **بحر العلوم**، نصر بن محمد أبو الليث السمرقندي (٣٧٣ هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٢٠. **البحر المحيط**، محمد بن يوسف بن علي أبي حيان الأندلسي (٧٤٥هـ)، دار الفكر – بيروت ١٤٢٠هـ.

٢١. **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٧٤ هـ)، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
٢٢. **بغية الوعاة**، جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ)، المكتبة العصرية - صيدا لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
٢٣. **تاج العروس**، محمد بن محمد الزبيدي (١٢٠٥ هـ)، المطبعة الخيرية – مصر، الطبعة الأولى ١٣٠٦هـ.
٢٤. **تاج اللغة** ، اسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٣ هـ)، دار العلم للملاين - بيروت، الطباعة الرابعة ١٤٠٧هـ.
٢٥. **التحرير والتنوير**، محمد بن الطاهر بن عاشور (١٣٩٣ هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م.
٢٦. **تحفة المودود بأحكام المولود**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، مكتبة دار البيان - دمشق، الطبعة الأولى عام ١٣٩١ هـ.
٢٧. **تربية الأولاد في الإسلام**، عبد الله ناصر علوان، دار السلام للنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ.
٢٨. **التعريفات**، علي بن محمد الشريف الجرجاني (٨١٦ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.
٢٩. **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، دار باوزير للنشر والتوزيع – جدة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
٣٠. **تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات**، فتحي عبد الرحمن جروان، دار الكتاب الجامعي – العين الأمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م.
٣١. **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)**، إسماعيل بن عمر بن كثير

(٧٧٤ هـ)، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ.

٣٢. **تفسير القرآن العظيم**، ابن أبي حاتم الرازي (٣٢٧ هـ)، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ.

٣٣. **تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود الزمخشري (٥٣٨ هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ.

٣٤. **تفسير المنار**، محمد رشيد بن علي رضا (١٣٥٤ هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٩٠م.

٣٥. **التفكير فريضة إسلامية**، عباس محمود العقاد (١٩٦٤ م) ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ٢٠٠٨ م.

٣٦. **التفكير ماهيته أبعاده أنواعه أهميته**، راشد بن حمد الكثيري، وآخرون، المؤتمر الثاني عشر، مناهج التعليم وتنمية الفكر، جامعة عين شمس، عام ٢٠٠٠ م.

٣٧. **التمثيل والمحاضرة**، عبد الملك بن محمد الثعالبي (٤٢٩ هـ)، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

٣٨. **التمهيد في تخريج الفروع على الأصول**، عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي الشافعي (٧٧٢ هـ)، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٣٩. **تهذيب الأخلاق**، أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ)، دار الصحابة للتراث، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٤٠. **التوقيف على مهمات التعاريف**، زين الدين محمد المناوي (١٠٣١ هـ)، عالم الكتب - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٤١. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٧٦ هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠.

٤٢. **جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)**، محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.
٤٣. **جامع بيان العلم وفضله**، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (٤٦٣ هـ)، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.
٤٤. **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد القرطبي (٦٧١ هـ)، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ.
٤٥. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (٧٥١ هـ)، دار المعرفة - المغرب، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
٤٦. **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (١٣٦٢ هـ) ، مؤسسة المعارف - بيروت (بدون تاريخ).
٤٧. **حسن التنبه لما ورد في التشبه**، نجم الدين الغزي (١٠٦١ هـ)، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق والمكتبة السليمانية بتركيا، مصورة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، نقلاً من رسالة: التدابير الواقية من التشبه بالكفار، رسالة دكتوراه للباحث عثمان أحمد دوكلي، العام الجامعي ١٤١٧-١٤١٨ هـ، مقدمة لكلية الدعوة والإعلام بجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية.
٤٨. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٤٣٠ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٩هـ.
٤٩. **حماية الناشئة من الانحراف**، بندر العبدلي، دار الوطن للنشر- الرياض ٢٠٠٥ م.
٥٠. **حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته**، سليمان بن عبد الرحمن

الحقيل، دار العاصمة للنشر والتوزيع – الريان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.

٥١. **درء تعارض العقل والنقل**، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، طباعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

٥٢. **دراسات في الأهواء والفرق والبدع**، د.ناصر العقل، دار أشبيليا، الطبعة الأولى – الرياض ١٤١٨ هـ.

٥٣. **رسالة الأساليب الواقية من الانحراف الفكري**، بحث لاستكمال درجة الماجستير مقدمة من الباحث محمد الدوسري لقسم الإدارة التربوية في جامعة أم القرى بمكة المكرمة لعام ١٤٣٣هـ.

٥٤. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم**، شهاب الدين محمود الألوسي (١٢٧٠ هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

٥٥. **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، لمحمد بن حبان البستي (٣٥٤ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، طبعة أخرى لوزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٨ م.

٥٦. **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠ هـ)، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

٥٧. **السنة**، أبي عبدالله محمد بن نصر المروزي (٢٩٤ هـ)، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٥٨. **سنن ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه (٢٧٣ هـ)، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، طبعة أخرى (بدون تاريخ).

٥٩. **سنن أبي داود**، أبو داود سليمان بن الاشعث السجستاني (٢٧٥ ه)، دار

الرسالة العالمية، الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ.

٦٠. **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩ هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ.

٦١. **سنن الدارمي**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (٢٥٥ هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.

٦٢. **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين أبو عبد الله الذهبي (٧٤٨ ه)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ.

٦٣. **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة**، رفيع بن مهران أبو العالية الرياحي البصري (٩٠ هـ)، دار طيبة – الرياض، ١٤٠٢.

٦٤. **شرح السنّة**، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٦ هـ)، المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ.

٦٥. **شرح العقيدة الأصفهانية**، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية (٧٢٨ ه)، المكتبة العصرية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ.

٦٦. **شرح صحيح البخاري**، أبو الحسن علي بن خلف ابن بطال (٤٤٩ ه)، مكتبة الرشد السعودية – الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٣.

٦٧. **شرح مسائل الجاهلية**، لمحمد بن عبدالوهاب، الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٦٨. **شعب الإيمان**، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي (٤٥٨ هـ)، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ.

٦٩. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية

(٧٥١ هـ)، دار المعرفة – بيروت ١٣٩٨ هـ.

٧٠. **شوقيات في ميزان النقد**، لمحمد مصطفى المجذوب، الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة، الطبعة السابعة ١٣٩٥ هـ.

٧١. **صحاح العربية** (مادة فكر)، أبو نصر اسماعيل الجوهري (٣٩٣ هـ)، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.

٧٢. **الصحبة في ضوء القرآن** (دراسة موضوعية)، أسماء وجيه أبو صفية، رسالة ماجستير مقدمة لكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة لعام ١٤٣٢هـ، ((غير مطبوعة)).

٧٣. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان (٣٥٤ هـ)، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ.

٧٤. **صحيح أبي داود**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠ هـ)، مؤسسة غراس – الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ.

٧٥. **صحيح الأدب المفرد**، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري (٢٥٦ هـ)، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٤١٨ هـ.

٧٦. **صحيح البخاري**، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري (٢٥٦ هـ)، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

٧٧. **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠ هـ)، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

٧٨. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت (بدون تاريخ).

٧٩. **صحيح وضعيف سنن ابن ماجه**، محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠

هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.

٨٠. **صفة الصفوة**، جمال الدين عبد الرحمن ابن الجوزي (٥٩٧ هـ)، دار الحديث - القاهرة ١٤٢١ هـ.

٨١. **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (٧٥١ هـ)، دار العاصمة الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.

٨٢. **العبودية**، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية (٧٢٨ ه)، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة السادسة ١٤٢٦هـ.

٨٣. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، نظام الدين الحسن النيسابوري (٨٥٠ هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

٨٤. **فتح الباري لشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي ابن حجر، دار المعرفة - بيروت ١٣٩٧ هـ.

٨٥. **فتح القدير**، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب - دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.

٨٦. **الفوائد**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (٧٥١ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ.

٨٧. **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، زين الدين محمد المناوي (١٠٣١ هـ)، المكتبة التجارية - مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ.

٨٨. **القاموس المحيط**، مجد الدين أبو طاهر الفيروزآبادي (٨١٧ هـ)، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر - بيروت، الطبعة الثامنة ١٤٢٦هـ.

٨٩. **القصيدة التائية في القدر**، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، دار ابن خزيمة - الرياض ١٤٢٤ هـ.

٩٠. **القصيدة النونية**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (٧٥١ هـ)، مكتبة

ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ.

٩١. **القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد**، محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠ هـ)، تحقيق عبد الرحمن عبد الخالق، دار القلم - الكويت ١٣٩٦هـ.

٩٢. **الكامل في اللغة والأدب**، لمحمد بن يزيد المبرد (٢٨٥ هـ)، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ.

٩٣. **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد بن علي التهانوني (١١٥٨ هـ)، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.

٩٤. **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أحمد بن محمد أبو أسحاق الثعلبي (٤٢٧ هـ)، دار إحياء التراث لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٩٥. **الكليات**، أيوب بن موسى أبو البقاء الكفوي (١٠٩٤ هـ)، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.

٩٦. **لسان العرب** (مادة فكر)، محمد بن مكرم ابن منظور (٧١١ هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

٩٧. **لطائف الإشارات**، عبد الكريم بن هوازن القشيري (٤٦٥ هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة الثالثة (بدون تاريخ).

٩٨. **لطائف المعارف**، زين الدين عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي (٧٩٥ هـ)، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٩٩. **مجمل اللغة** (مادة فكر)، أحمد ابن فارس بن زكريا (٣٩٥ هـ)، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

١٠٠. **مجموع الفتاوى**، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة ١٤٢٦ هـ،

١٠١. **مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين**، دار الوطن - دار الثريا، الطبعة الأخيرة ١٤١٣هـ.
١٠٢. **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي (١٣٣٢ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
١٠٣. **مدارج السالكين**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (٧٥١ هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ.
١٠٤. **المستدرك على الصحيحين**، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله (٤٠٥ هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولة ١٤١١ هـ.
١٠٥. **مسند الأمام أحمد بن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (٢٤١ هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.
١٠٦. **مشكاة المصابيح**، محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي (٧٤١ هـ)، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٥ م.
١٠٧. **المصباح المنير**، أحمد محمد علي الفيومي (٧٧٠ هـ)، المكتبة العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م.
١٠٨. **مصنف بن أبي شيبة**، أبو بكر بن أبي شيبة (٢٣٥ هـ)، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.
١٠٩. **معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم**، أبو محمد الحسين البغوي (٥١٠ هـ)، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.
١١٠. **معالم السنن شرح سنن أبي داود**، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (٣٨٨ هـ)، المطبعة العلمية - حلب، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ.
١١١. **المعجم الكبير**، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠ هـ)، مكتبة العلوم والحكم – العراق، عام ١٤٠٤ هـ.

١١٢. **معجم المؤلفين**، عمر رضا محمد كحالة (١٤٠٨ هـ)، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي (بدون تاريخ).

١١٣. **المعجم الوسيط** (مادة فكر)، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، خالد عبد القادر، محمد النجار، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، المكتبة الإسلامية – استانبول تركيا (بدون تاريخ).

١١٤. **مفاتيح الغيب** (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

١١٥. **مفتاح دار السعادة**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (٧٥١ ه)، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٩ هـ.

١١٦. **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ)، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.

١١٧. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس الرازي (٣٩٥ هـ)، دار الفكر ١٣٩٩هـ.

١١٨. **المقطع المرئي لصاحب السمو الملكي**، الأمير نايف بن عبد العزيز رحمه الله في الـ you t ube من خلال الرابط (https://www.youtube.com/watch?v=_svpSuziUKc).

١١٩. **مناقب عمر بن الخطاب**، عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (٥٩٧ هـ)، دار ابن خلدون ١٩٩٦ م.

١٢٠. **المنصف للسارق والمسروق منه**، الحسن بن علي التنيسي ابن وكيع (٣٩٣ هـ)، جامعة قات يونس – بنغازي، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م.

١٢١. **الموافقات**، إبراهيم بن موسى الشاطبي (٧٩٠ هـ)، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٢٢. **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد بن علي التهانوي (١١٥٨ هـ)، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.

١٢٣. **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، عبد الرحمن بن محمد كمال الدين الأنباري (٥٧٧ هـ)، مكتبة المنار – الأردن، الطبعة الثالثة، عام ١٤٠٥ هـ.

١٢٤. **النهج الإيماني في التفكير**، عدنان علي رضا النحوي، دار النحوي – الرياض، الطباعة الأولى ٢٠٠١ م.

١٢٥. **وفيات الأعيان**، أبو العباس شمس الدين أحمد ابن خلكان البرمكي (٦٨١ هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م.

المواقع الإلكترونية:

١- موقع صيد الفوائد.

٢- ملتقى أهل التفسير.

٣- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

٤- موقع الشيخ الدكتور محمد السعيدي.

***

الفهرس

تقديم ٥
شكر وتقدير ٧
المقدمة ٩
أهمية وأسباب اختيار الموضوع: ١٠
أهداف الموضوع: ١٠
الدراسات السابقة: ١١
منهج البحث وخطته ١٥
خطة البحث: ١٦
التمهيد ١٩
الفصل الأول : ما يجب اجتنابه لحماية الفكر ٥١
المبحث الأول: أعراف الجاهلية كتعطيل الفكر وتقليد الأسلاف ٥٣
المبحث الثاني: الحذرُ من صحبةِ السوءِ والاغترارِ بهم ٦٧
خطر الصحبة على الفكر: ٧٠
المبحث الثالث: القول على الله بغير علم ٧٧
المبحث الرابع: الاغترار بما عليه أهل الكفر والانبهار به ٨٩
حكمة النهي عن التَّشَبُّه بالكفار: ٩٥
الفصل الثاني: الأمور التي ينبغي التزامها لحماية الفكر ١٠١
المبحث الأول: إعمال العقل والبعد عن الظن ١٠٣
المبحث الثاني: التسلُّح بالعلم الشرعي ١١٣
المبحث الثالث: الثبات على الحق والبعد عن التقليد المذموم ١٢١
المبحث الرابع: رد الحُكم إلى الله والرسول عند الاختلاف من خلال القرآن الكريم ١٣٣
المبحث الخامس: التربية الإيمانية والدعاء بالثبات ١٤٥

الفصل الثالث: آثار حماية الفكر ١٥٩
المبحث الأول: آثار حماية الفكر على الفرد ١٦١
مفهوم الأمن في كتابات المحدثين المعاصرين: ١٦٢
ضرورة الأمن الفكري: ١٦٢
ثمرات الصلاح والإصلاح: ١٧٣
المبحث الثاني: آثار حماية الفكر على المجتمع ١٩٣
الخاتمة ٢١٧
المراجع ٢٢١
الفهرس ٢٣٥

❊❊❊